

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١



Amly

<http://arabiccivilization2.blogspot.com>

شفيق غربال

دار الشروق

الجنرال يعقوب
والقارس لا مكاريس

صدر هذا الكتاب عن
مركز الدراسات التاريخية
لدار الشروق
أسسه د. يونان لعيب رزق

رئيس التحرير: د. لطيفة محمد سالم

مستشارو التحرير: د. أحمد زكريا الشلق
د. حمادة محمود إسماعيل
د. محمد عفيفي

سكرتير التحرير: أ. عبد المنعم سعيد

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠٠٩

رقم الإيداع ١٤٧٣٣/٢٠٠٨

ISBN 978-977-09-2489-3

جميع حقوق الطبع محفوظة

© دار الشروق

٨ شارع سهوييه المصري

مدينة نصر - القاهرة - مصر

تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩

فاكس: ٢٤٠٢٧٥٦٧ (٢٠٣) +

e-mail: dar@shorouk.com

www.shorouk.com

شفيق غربال

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

ومشروع استقلال مصر
في سنة ١٨٠١

تقديم ودراسة
د. محمد عفيفي

Amby

<http://arabicivilization2.blogspot.com>

دار الشروق

المحتويات

٩	تقديم
١١	غربال ومدرسة «الليبرالية المحافظة» في الكتابة التاريخية - دراسة
١٧	المعلم يعقوب ومشروعه بين الواقع التاريخي والأسطورة - دراسة
٢٣	الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١
٥٧	الملحق الأول
٥٩	الملحق الثاني
٦٥	الملحق الثالث
٦٧	الملحق الرابع
٦٩	خاتمة



الجنرال يعقوب حنا
(نقلا من كتاب همضي الجنرال يعقوب صحيفة ١١٣)

تقديم

يُسعدنى أن تقوم دار الشروق بتقديم طبعة جديدة من هذا الكتاب المهم لهذا المؤرخ المهم «شفيق غربال» الذى يُعتبر بحق رايد الدراسات التاريخية الحديثة فى مصر.

وُلد شفيق غربال فى ٢٤ يناير ١٨٩٤ فى نجر الإسكندرية، هذا الثغر الذى أنجب العديد من رموز الحركة الفكرية والفنية فى مصر. وفى البداية درس غربال فى مدرسة المعلمين العليا، التى تخرج فيها فى عام ١٩١٥.

وفى ظل النهضة الفكرية التى كانت تمر بها مصر بعد ثورة ١٩١٩، أُرسِل غربال إلى جامعة لندن ليواصل دراساته العليا فى التاريخ الحديث، حيث درس على يد أشهر مؤرخ موسوعى فى القرن العشرين «أرنولد توينبى»، وكان عنوان رسالة الماجستير التى أعدها غربال فى إنجلترا «بداية المسألة المصرية وصعود محمد على».

وعاد غربال بعد ذلك ليقوم بتدريس التاريخ فى المدارس الثانوية، ثم انتقل للعمل فى مدرسة المعلمين العليا، وأخيراً استقر به المطاف للتدريس بجامعة فؤاد الأول «جامعة القاهرة بعد ذلك».

وتعدده مؤلفات غربال التاريخية فى شتى المناحي المختلفة، ومنها هذا الكتاب الذى نُقِّد له، والذى تنبج أهميته من معالجته للعديد من النقاط المهمة والحساسة فى تاريخ مصر. إذ يتصل الكتاب اتصالاً مباشراً بمسألة تاريخ الاستقلال المصرى، والبحث عن شرعنة لجذور القومية المصرية؛ يُضاف إلى ذلك دور الحملة الفرنسية فى النهضة المصرية، والجهد الدائم والمستمر حول ذلك حتى الآن. فضلاً عن الربط بين فكرة «الوفد المصرى» أيام الجنرال يعقوب، و«الوفد المصرى» أيام

سعد باشا زغلول؛ وأخيرًا يتعلق الكتاب بمسألة دور الأقباط في الحركة الوطنية المصرية.

لقد أثار هذا الكتاب عند صدوره العديد من مظاهر الجدل حول النقاط المهمة التي عالجها؛ ونعتقد أن إعادة نشره مرة أخرى سيصاحبها العديد من النقاشات المفيدة، لأن الكثير من النقاط التي يطرحها مازالت مثيرة للتساؤل حتى الآن

هذا وقد رأت اللجنة العلمية بمركز الدراسات التاريخية لدار الشروق أن تسبق الكتاب بدراسة تكون مدخلًا موضحًا وشارحًا للكتاب.

والله ولي التوفيق

د. محمد عفيفي

غريبال ومدرسة «الليبرالية المحافظة» في الكتابة التاريخية

قد يصطدم القارى الآن فى عام ٢٠٠٨ ببعض مقولات غريبال التى ذكرها فى كتابه هذا الذى صدر فى عام ١٩٣٢، فالمؤرخ عندما يكتب تاريخ الماصى يتأثر تأثيراً كبيراً بالمناخ السياسى والمكرى الذى يكتب أثناءه، ولا يتعارض ذلك فى الحقيقة مع فكرة «الموضوعية» فى كتابة التاريخ، فأولاً الموضوعية هى فى الحقيقة «نسبية»، ومن جهة أخرى المؤرخ يُعبر عن اتجاه فكرى يتمى إليه، دون أن يعتدى على الوقائع التاريخية.

من خلال هذه المقدمة السليطة نستطيع أن ندخل إلى عالم شفيق غريبال وعصره، وأيضاً إلى كتابه الذى نعيد نشره. إذ يتمى شفيق غريبال إلى جيل الرواد فى المدرسة التاريخية، حتى أن البعض ينظر إليه على أنه الأب الروحى لمدرسة التاريخ المصرى، أو على الأقل مدرسة التاريخ الحديث فى مصر. وغريبال هو خريج الجامعات البريطانية وتلميذ أشهر مؤرخ موسوعى فى القرن العشرين «أرنولد توينبى» وهو أيضاً ابن المدرسة الليبرالية المصرية التى ازدهرت بعد ثورة ١٩١٩.

ولا ننسى أن عنوان رسالة الماجستير التى أعدها غريبال فى إنجلترا كان عن «بداية المسألة المصرية وصعود محمد على». كما أخرج لما غريبال بعد ذلك كتاباً آخر عن محمد على أطلق عليه «محمد على الكبير».

وهكذا يأتى اختيار موضوع كتابه الذى نعيد نشره عن «الجنرال يعقوب» لارتباط ذلك بفكرة «الاستقلال» مصر الذى يرى غريبال أن أول من فكر فيه كبير

«الأسرة العلوية» محمد عليّ، وأن أسرته من بعده حافظت على هذا النهج، ويدور ذلك واضحاً في حاشية الكتاب إذ ينص غربال على

«كذلك كانت بداية الفكرة الاستقلالية، أما تاريخها فهو تاريخ مصر من أيام محمد عليّ حتى اليوم».

ويفسر غربال ذلك تفسيراً تاريخياً مطولاً في الصفحة الرابعة والعشرين من الكتاب، حيث يربط بين «العليق القطي» الذي أنشأه المعلم يعقوب، وبين الجيش الحديث على النسق العربي الذي أنشأه محمد عليّ قايلاً:

«عول - يعقوب - على أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدرية على النظم الغربية. فكان سباقاً إلى تعهم الدرس الذي ألفاه انتصار الفرنسيين على المماليك أو قل إلى إدراك محمد عليّ بعد قليل من أن سر انتصار الغربيين في جودة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية، فسرق البرق من الآلهة وكان له ذلك».

هكذا يربط غربال بين الفيلق القبطي وجيش محمد عليّ، وهي مقارنة غير عادلة، إلا من حيث الاستعانة بالخبرة الفرنسية، وظروف تشكيل الفيلق القبطي هي فترة الاحتلال الفرنسي، بينما تكوين جيش محمد عليّ تم في إطار تجربة مخالفة هي تحديث مصر.

ويمكن نقل مقولات غربال السابقة في إطار مشروعه، بل مشروع المدرسة التاريخية المصرية في عصره، في كتابة تاريخ الأسرة العلوية والبحث عن «حدود مصرية» لفكرة استقلال مصر التي بدأها - من وجهة نظر غربال - محمد عليّ وأسرته. فمشروع يعقوب في استقلال مصر يمكن أن يُعتبر تأصيلاً تاريخياً و«شرعة» لأسرة محمد عليّ. ويتذكر أن غربال يكتب كتابه هذا في عهد الملك فؤاد صاحب مشروع كتابة تاريخ محمد عليّ، هذا المشروع الذي استقدم واستكتب من أجله العديد من المؤرخين الأجانب.

وربما تتضح فكرتنا أكثر وأكثر إذا تتبعنا موقف غربال من السيد عمر مكرم، فعمر مكرم الآن في مطلع القرن الواحد والعشرين وبعد سنوات طويلة من استقرار المدرسة التاريخية «القومية» بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، يُعتبر زعيماً وطنياً، ورمزاً للمقاومة الشعبية ضد الحملة الفرنسية، بينما هو ليس كذلك عند شفيق غربال الذي يكتب في عام ١٩٣٥.

قد تصدنا «رؤية» عربال لعمر مكرم ودوره، ولكننا لاند أن نتقبل هذه «الرؤية» فى إطار العصر الذى يكتب فيه عربال، وأيضًا فى إطار مدرسة «المعتدلين» فى الكتابة التاريخية، هذا الاتجاه الذى نرى أن غربال يتزعمه، فكما يوجد اتجاه «المعتدلين» فى السياسة المصرية، يوجد أيضًا هذا الاتجاه فى الكتابة التاريخية، وهو ما سنوضحه بعد قليل عند دراسة موقف عربال من الحملة الفرنسية.

عودة مرة أخرى إلى «رؤية» عربال لعمر مكرم ودوره، إذ يرى فيه رعاة تقليدية، تمثل امتدادًا لدور العلماء كواسطة بين الحكام والمحكومين، وفى نفس الوقت يُفضل عليه المعلم يعقوب ومشروعه ويرى غربال أن مشروع عمر مكرم يعتمد على «تهيج» الناس ودفعهم للصدام مع الفرنسيين، وأن هذا التهيج والصدام قد أدى إلى نتائج وحيدة على مصر والمصريين، فهو من ناحية حال دون استعادة مصر من «الحصارة الغربية» آنذاك، وحال من أن تؤدى فرنسا دورها وأحلامها فى مصر من ناحية أخرى، وستطرق إلى هذه النقطة بالتفصيل بعد ذلك. أما مشروع يعقوب فيعتمد على التعاون مع الفرنسيين لتكوين «حيش مصرى» مُدرب يكون أداة لاستقلال مصر عن المماليك، والدولة العثمانية، ويُفضل غربال شخصية ومشروع يعقوب عن شخصية ومشروع عمر مكرم إذ يقول :

«هنا الفرق الأكبر بين يعقوب وعمر مكرم. يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المُدرّنة، والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته، ولا يسهل كبح جماحه، والذى قد يصل سريعًا لتحقيق أغراض حاسمة، ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر».

هنا تظهر رؤية شفيق غربال «المعتدلة» أو «المحافظة»، على حسب ما تقرره أيها القارى العزيز، فغربال سليل المرحلة الليبرالية لا يتقبل فى الحقيقة سهولة ما يمكن أن نسميه، بمصطلحات أكثر معاصرة، «صوت الجماهير». علينا تذكر مدى تأثير المظاهرات فى عصر غربال على تصدع التجربة الليبرالية. إن عربال هنا متسق مع نفسه كأمين للمدرسة الليبرالية «الإنجليزية المحافظة».

من ناحية أخرى لا يمكن تجاهل أن عربال، على الأقل فى ذلك الوقت، هو مؤرخ «الأسرة العلوية»، ونعلم جميعًا الصدام الحاد الذى حدث بين محمد على والسيد عمر مكرم. وعلى الرغم من أهمية الدور الذى لعبه عمر مكرم فى تولية محمد على

ولاية مصر في عام ١٨٠٥، إلا أن شهر العسل بينهما لم يدم طويلاً. إذ سرعان ما بدأ محمد عليّ مشروعه في مصر بضرب القوى التقليدية، المماليك والعلماء، وكان من المحتم الصدام بين محمد عليّ وعمر مكرم، فالأخير لم يمس دوره في صعود محمد عليّ، الذي لم ينس هو أيضاً هذا الدور، وكان لا بد من وجهة نظره إزاحة السيد عمر مكرم كأكبر ممثل لقوة العلماء، ومن هنا كان نفى محمد عليّ لعمر مكرم خارج القاهرة.

ولا يُخفى غربال امتعاضه من موقف عمر مكرم تجاه محمد عليّ إذ يذكر:
 «وقدر أرى عاقبة أطماعه لما حاول أن يتحكم في محمد عليّ كما تحكم في خورشيد - الوالي العثماني - من قبل، فذاق النعي عن القاهرة وانتهاء حياته السياسية»
 هكذا تجمعت النظرة الليبرالية «الإنجليزية المحافظة»، بالإضافة إلى الولاء للأسرة العلوية، في رسم «رؤية» غربال لعمر مكرم ودوره ومشروعه وتفصيل شخصية يعقوب ومشروعه عليه.

وربما تتضح أكثر الرؤية «المحافظة» لغربال عند حديثه عن «ثورتى» القاهرة الأولى والثانية. وقد وضعنا كلمة ثورة بين قوسين هنا لبيان اختلاف نظرة غربال إليها ومعنى مفهوم «الثورة» عنها، إذ يصممها بأنها «فتن شعبية». ويرجع هذا كما أوضحنا لرفضه لفكرة «تهيج» الناس. ويرى غربال أن معظم العلماء رفضوا هذه «الفتن» ورأوا أنها تجر الخراب على مصر والمصريين، وتثير الفرنسيين وعضبهم، وأنه لا طائل حقيقى من ورايها. بل ويأخذ عليها أن الهدف من ورايها كان عودة مصر مرة أخرى إلى السيادة العثمانية تحت حكم المماليك. وربما نستدعى هنا مرة أخرى قصة الصراع الطويل بين محمد عليّ وأسرته من بعده مع الدولة العثمانية، في سبيل توسيع سلطات أسرة محمد عليّ، أو من وجهة نظر «علوية» توسيع «استقلال مصر» يقول غربال:

«وصفنا الفتن بأنها كانت شعبية كرهها كبار العلماء دون أن يحبوا الحكم الفرنسي وحاولوا أن يقوا الناس أذى بطش الفرنسيين جهد استطاعتهم».

ويصل رفض غربال لهج «الفتن الشعبية» أو «الثورات الشعبية» لذروته عندما يقول:

«تبين لأهل القاهرة بعد هذه الفتنة كما سيتبين لهم بعد جلاء الجيش الفرنسي أنهم كانوا محدوعين في قيامهم على الحكم الفرنسي من أجل العثمانيين. وأهم كانوا هي فتنتهم ضحية الدجاجة كما سماهم الجبرتي الذي اختص منهم رجلاً مغريباً لا ناقة له فيها ولا جمل. يدعو للجهاد ويحرص على الابتعاد عن مواطن القتال، يهدد من يتكلم في الصلح يرمى العنق ولا يأكل إلا الدجاج».

هكذا يرفض عربال مشروع «العامة» وعلى رأسه عمر مكرم ويُفضل عليه مشروع «الخاصة» وعلى رأسه يعقوب:

«لا يرى التاريخ الصحيح في موقف العامة ورعمايها وأهل الرأي فيها أثراً لفكرة الاستقلال الوطني. ولا يسجل إلا لمصرى واحد من أهل هذا العصر فصل اعتبار الاحتلال الفرنسي لا فترة نحس يُرحى روالها وعود ما سبقها. بل بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية بقطع التبعية العثمانية وهدم قوة المماليك. ذلك المصري هو المعلم يعقوب حنا».

ويعرنا ذلك إلى تفهم «رؤية» عربال الليبرالي «المحافظ» تجاه الحملة الفرنسية، وبدايةً لا يُذكر عربال أن الحملة هي بمثابة «الاحتلال»، ولكن من وجهة نظره الليبرالية المحافظة هو يحاول أن ينظر إلى ما هو أبعد من ذلك، إذ يرى الوجه الحضاري للحملة الفرنسية، وهي نفسها - وجهة النظر - التي تساهم من بعده أبناء المدرسة الليبرالية، فيقول:

«لا يمكن الشك في أن الفرنسيين لو خلص لهم ملك مصر لحكموها كما ينتظر من حكومة جمهورية قائمة على قواعد الثورة الفرنسية أتيح لها في عصر بدأ فيه الانقلاب الاقتصادي الكبير أن تحكم قفراً زراعياً حصصاً ذا مركز جغرافي فذ كوادى النيل وأمة عربية إسلامية ذات تاريخ معمم بعمر الدهر كالأمة المصرية».

وهكذا نحى أمام أسطورة الدور الحضاري للحملة الفرنسية على مصر، هذه القضية التي أثارت وتشير ردود أفعال متباينة حولها، كان أشدها عند الاحتمال بمرور مايتي عام على الحملة الفرنسية في عام ١٩٩٨ ولكن عربال هنا هو ابن عصره وليبراليته، وربما نتيجة رؤية غربال المحتفية بالحملة الفرنسية، فإنه يتقبل تعاون المعلم يعقوب مع الفرنسيين، ويُفضل مشروعه عن مشروع عمر مكرم. ولكن الآن من هو المعلم يعقوب وما هو مشروعه لاستقلال مصر؟

المعلم يعقوب ومشروعه بين الواقع التاريخي والأسطورة

إن الحديث عن «الجنرال» / «المعلم» يعقوب مسألة مثيرة للمجدل بين المؤرخين على كافة حثسياتهم وانتماءاتهم الدينية منذ مطلع القرن العشرين وحتى الآن فمن هو هذا «المعلم» / «الجنرال»؟

في الواقع لا يستطيع تفهم هذه «الظاهرة» المسماة بالمعلم يعقوب دون التعرض للحلفية الاجتماعية والمهنية التي أتى منها يعقوب. فمند العترات الأولى بعد الفتح العربي لعب الأقباط دورًا مهمًا في إدارة شئون مصر المالية، لاسيما فيما يتعلق بجباية الضرائب الزراعية. ونشأت نتيجة لذلك فئة اجتماعية ومهنية عُرفت باسم «الكتبة والمباشرين الأقباط». وحرصت هذه الفئة على احتكار هذا الدور وهذه الوظائف على مر القرون، على الرغم من بعض الاعتراضات الفقهية حول دور أهل الذمة في إدارة «الدولة الإسلامية».

على أية حال أصبح لهؤلاء «الكتبة والمباشرين» مكانة خاصة سواء على مستوى الإدارة والعلاقة بالحكام، أو على المستوى الطائفي والكنسي. فعلى مستوى الحكام، انتمى الكتبة والمباشرين الأقباط برابطة الولاء إلى الكثيرين من حكام البلاد. وترتب على ذلك ثراء هؤلاء الكتبة والمباشرين واتساع نفوذهم أحيانًا، وغضب أسيادهم الحكام عليهم ومصادرة أملاكهم والبطش بهم أحيانًا أخرى.

ومن ناحية أخرى أصبح هؤلاء الكتبة والمباشرين يمثلون «الأراخنة» أي الصفوة القبطية العلمانية- أى غير الدينية- بما يترتب على ذلك من نفوذ وهيبة داخل المجتمع القبطي. كما لعب هؤلاء الكتبة والمباشرين أدوارًا مهمة في صناعة القرار داخل الكنيسة القبطية نفسها.

ولكن ما هي الخلفية التعليمية والثقافية والتدريب المهني لهذه الغية المهمة في الإدارة المالية؟ هذا السؤال في غاية الأهمية لفهم التكوين التعليمي والفكري للمعلم يعقوب - أحد أبناء هذه الغية - لكي نحكم على «مشروع الاستقلال»

يبدأ هؤلاء في مرحلة الطفولة في الدراسة في «الكتاب» القبلي الذي لا يختلف في الحقيقة عن مثيله الإسلامي إلا في اهتمام الأقطاب بتعلم قواعد الحساب، وأيضاً الاهتمام بتعلم الكتاب المقدس. وبعد ذلك يلتحق هؤلاء بالعمل في خدمة أحد الكتبة أو المباشرين لبدأ التدريب الحقيقي على كيفية حساب وجباية الضرائب الزراعية، لاسيما وأن هذه الحسابات كانت تتم وفقاً للتقويم القبلي لارتباطه في التراث المصري القديم بتنظيم الدورة الزراعية في مصر

في إطار هذه العملية نشأ يعقوب في ملوى بصعيد مصر، وتعلم في الكتاب ولما بلغ مرحلة الشباب الحقه والده بخدمة كاتب قبلي يتولى مسؤولية جباية الضرائب لأحد المماليك. وسمحت فترة على بك الكبير بالمزيد من الدور للكتبة والمباشرين الأقطاب، والتحق يعقوب بالعمل لدى أحد أرباب ممالك على بك الكبير وهو سليمان بك. وهنا يبدأ نعم يعقوب في الظهور وتبدأ حوله أيضاً الأساطير وإضفاء مظاهر البطولة عليه، إذ يرى البعض أنه تعلم ركوب الحيل واستعمال السيف. ومن المعروف أنه طيلة الفترة العثمانية كان محرماً على أهل الدمة بصفة خاصة ركوب «الخيل» ويُسمح لهم بركوب «الحمير»، بل وكان ممنوعاً على غير العسكريين - من المسلمين - ركوب الحيل، وفي الأغلب كان «العالم» أو «الشريف» يركب «بغلة» دلالة على وضعه المتميز. أما استعمال السيف فهو من الفنون العسكرية التي تتطلب مراناً طويلاً منذ الصغر، ولم يكن يُسمح به إلا للعسكر. فإذا جاز بالفعل ليعقوب تعلم الفروسية وفنون القتال على يد المماليك فهو بالفعل حالة خاصة، ولكنه لا يرقى إلى مستوى التدريب العسكري المملوكي أو العثماني.

وبدأ تعرف يعقوب على الفرنسيين أيام الحملة الفرنسية بفصل المعلم جرجس الجوهري أحد كبار المباشرين الأقطاب في عهد بونابرت. وسلاحظ بعد ذلك اقتراف مسيرة جرجس عن يعقوب، فبينما يستمر جرجس في الارتباط بمصر والبقاء فيها بعد خروج الحملة الفرنسية، ويرتقى بعد ذلك في خدمة محمد علي، يُصير يعقوب على الخروج من مصر راحلاً إلى أوروبا هي جعبة الفرنسيين والانجليز وبسما يُبقى

جرجس الجوهري على وظيفته الأولى كأحد كبار جياة الضراب، وهي وظيفة أجداده، يقوم يعقوب بتشكيل الفيلق القطى الذى التحق بخدمة الفرنسيين كميليشيا عسكرية.

وهنا تبدأ موجة جديدة من الأساطير حول «التاريخ» للمعلم يعقوب أو «الجنرال» يعقوب وتبدأ هذه الأساطير حول كفاءة وقوة «جيش» يعقوب وأيضاً حول أعدادهم، ففي الواقع لم يكن أغلب أفراد هذه «الميليشيا» إلا صناع وعمال يعملون باليومية فى خدمة الجيش الفرنسى فى الصعيد. كما قيل أن أعداد هذا الجيش وصلت إلى ألفين جندي، وقيل حوالى ثمانماية جندي فقط. وتحاك الكثير من الأساطير حول القلعة التى بناها المعلم يعقوب فى «مزره!!» الأركية لحماية الحى القبلى فى «المقس» من هجمات الجيش العثمانى القادم لمصر، أو من هجمات بعض المتطرفين المسلمين. كما يُحيط بالعلاقة «الخاصة» بين الجنرال الفرنسى ديره والمعلم يعقوب الكثير من علامات الاستهزام - وأيضاً التكهنات - هل هى علاقة «فكرية» اطلع من خلالها يعقوب على أفكار الثورة الفرنسية «الحرية، الإخاء والمساواة»؟ أم علاقة «جسدية» كما يُشير البعض لذلك؟

لقد رفض يعقوب الأمان الممنوح له من جانب العثمانيين بالبقاء فى مصر بعد خروج الحملة، وأصر على الرحيل مع نمر قليل من أتباعه. وهما تدخل فى فصل جديد من فصول «الأساطير المؤرحة» عن يعقوب، إن الأيام القليلة التى قضاها يعقوب على ظهر المركب قبل وفاته فى عرض البحر، تمثل بحق دروة تصاعد الحدث الدرامى فى «الأساطير المؤسسية» حول ظاهرة المعلم يعقوب.

إنه من السهل النظر إلى يعقوب على أنه «دون كيشوت» المصرى الذى يرحل إلى أوروبا مطالباً إيها بتقبُّل مشروعه الخاص باستقلال مصر عن الدولة العثمانية، وصمان أوروبا لهذا الاستقلال. لكننا نعتقد أنه لا يمكن تفسير هذا الأمر بمثل هذه البساطة.

ففى الواقع شارك الفارس لاسكاريس - مُرافق يعقوب على المركب - فى كتابة الفصل الأخير والمثير فى «الأساطير المؤسسية» لطاهرة «الجنرال» يعقوب. ولاسكاريس هذا هو فى الواقع أحد «فرسان القديس يوحنا» فى مالطة، مال إلى

حاجب بوبابرث هي أثناء عزوه لمالطة. هذا الرجل - لاسكاريس - الذي يصفه لويس عوص قايلًا: «كان لاسكاريس عريب الأطوار مصابًا بنوع من الهوس أو الحيال المسرف».

وهي الحقيقة أن ما نعرفه عن «مشروع الاستقلال» المنسوب ليعقوب هو منقول عن رواية لاسكاريس بعد وفاة يعقوب. وما ذُكر عن أن يعقوب ومن معه هم «الوفد» المُشكّل عن جموع عقلاء المصريين مسلمين وأقباط، الذين اجتمع معهم يعقوب في مصر قبيل رحيله من مصر، لهو أمر يبعث على السخرية، فإن أي متخصص في تاريخ هذه الفترة سيستعد من الأساس فكرة تكوين «وفد»، أو حتى أن يُوكّل عقلاء المسلمين - حسب عقيدة ذلك الزمن - أحد «أهل الدمة» للتحديث باسمهم، مما بان أن إذا كان هذا المتحدث هو «الجنرال» يعقوب بماضيه «المُحتَلَف عليه» مع الفرنسيين.

إن المتمعن جيدًا لأفكار «مشروع الاستقلال» يدرك تمامًا أنها من «بنات أفكار» المارس لاسكاريس تركبته النفسية والعقلية العربية والعربية أيضًا، حيث وصف نفسه بأنه «قُدّر لبعض الناس أن يصنعوا الدساتير، وقُدّر لآخرين أن يصنعوا الأبطال. أما هو فقد قُدّر له أن يكون من صانعي المشروعات وأنه كثيرًا ما يضع نفسه فوق العالم المادى والروحي» وقد وصّعه الجنرال ميمو بأنه مصاب بجنون العظمة

على أية حال زادت الوفاة المماحية ليعقوب من الحكمة الدرامية للأساطير المؤسسة المنسوجة حوله، وسمحت لاسكاريس بتقديم هذا المشروع الذي لا يتفق مع معطيات العصر آنذاك، وهو المشروع الذي لم يعيره أحد التفاتًا في أوروبا آنذاك

ولكن الجو الأسطوري المنسوج حول يعقوب يخلق من جديد أساطير جديدة حوله، حيث ركز بعض المؤرخين الأجانب مثل «دوان» عليه وعلى مشروعه، نظرًا لأن دوان هو المؤرخ الرسمي للقصر الملكي المصري الذي كان يسعى لايجاد مشروعية لاستقلال محمد علي عن الدولة العثمانية، فضلًا عن تعظيم دور الحضارة الغربية في تفتح ذهن أحد المصريين لفكرة استقلال مصر.

وعلى الجانب الآخر تأتي الإشادة من جانب بعض كبار المؤرخين المصريين - مثل شفيق غربال، محمد صبرى وصبحى وحيدة - بيعقوب ومشروعه متسقة تمامًا مع ظروف نشأة المدرسة التاريخية المصرية الوطنية بعد ثورة ١٩١٩ وسقوط الدولة

العثمانية، واستقلال مصر عام ١٩٢٢، ومحاولة تأسيس «مرجعيات» تاريخية لفكرة الاستقلال.

أما تناول لويس عوص لمسألة المعلم يعقوب فهي تأتي في إطار مشروعه «المشاغب» لتاريخ الفكر المصري. كما لا يمكن الفصل بين معالجة لويس عوص لمشروع الاستقلال المنسوب ليعقوب وبين المناخ المصري آنذاك، والذي في طله ظهرت دراسة لويس عوص فهي محاولة لتأصيل «الوطنية» و«الاستقلال» ولكن من مفهوم خاص جدًا. ولكننا لا نتقبل الربط الطائفي الذي حاوله البعض بين يعقوب ولويس عوص، لأنه في الحقيقة لا يمكن التعرض له بشكل علمي.

وأما من ناحية أعليية المؤرخين الأقباط الذين عالجوا موضوع المعلم يعقوب، ففي الحقيقة كانوا يعانون من مشكلة تهميش «الشخصية القبطية» في الكتابة التاريخية المصرية. من هنا كان رد فعل البعض «المبالغة» في التأريخ ليعقوب، والوقوع في شرك الأساطير حوله، وآخر هؤلاء على سبيل المثال سيم مجلى الذي رأى في يعقوب «ظاهرة فذة في تاريخ مصر»، بينما هناك من معاصري يعقوب من هم أكثر أهمية منه وأكثر ارتباطًا بمصر، مثل الأخوين إبراهيم وجرجس الجوهري.

ولعل آخر الدراسات الحادة عن المعلم يعقوب والفارس لاسكاريس هي دراسة المؤرخ الفرنسي هنري لوريس «المعاصر والمستشرق»، والتي درس فيها دور لاسكاريس في الشرق مقارنةً بدور لورانس الشهير، والذي عرفه جميعًا من خلال الفيلم الشهير «لورانس العرب»، إذ يرى فيهما نموذجًا للمعاصر المصاحب والضروري للاستعمار في الشرق. وأيضًا نموذج للمعاصر الذي تُسجح حوله الأساطير المخالفة للواقع التاريخي.

فلاسكاريس لا يقتصر دوره المزعوم في إحياء القومية المصرية ومشروع استقلال مصر على علاقته مع المعلم يعقوب، وإنما نجد له مخامرات مشابهة مع الموارد في جبل لبنان، ومشروع مشابه لاستقلال جبل لبنان «إعادة ميناء بيروت إلى لسان ومساعدة هذا الجبل على نزع نير باشا سوريا وفلسطين، ويجب على الأمير بشير، عبر رسالة موجهة إلى إمبراطورنا - الفرنسي أن يُسارع إلى حمايته». وهكذا نجد مشروع آخر مرعوم للاستقلال يأتي على لسان الأمير بشير الشهابي في عام ١٨٠٦.

ويُلخص «لورنس» لاسكاريس وأسطورته قايلاً:

«ومن ثم فحياة لاسكاريس حياة فاشلة وموته في نهاية الأمر - في مصر في عام ١٨١٧ - لا يترك غير صدى طفيف ودوره في التاريخ يمكن أن يبدو هيناً. لكن الأسطورة كما هي الحال غالباً مع المغامرين، سوف تؤدي تدريجياً إلى حجب الواقع».

ويقدم لورنس سناً وجيهاً لصناعة أسطورة الجنرال يعقوب بعد ثورة ١٩١٩.

«لعبة الذهاب والإياب هذه نفسها تتكرر في عام ١٩٢٤، عندما يكشف جورج دوان عن مذكرة البعثة المصرية - يقصد رحلة المعلم يعقوب إلى أوروبا - فالأثر التاريخي بالغ القوة، والمسألة ليست أكثر ولا أقل من ظهور موقف مشابه للموقف في عام ١٩١٩، تشكيل وفد من أجل مؤتمر الصلح، والشئ المهم يجيء - من وجهة نظر مؤرخي الفترة - من توقيع يعقوب، أنه أول مصري يتحدث عن الأمة المصرية في نص مؤرخ تاريخياً».

لكن لورنس يرفض هذه النظرة «القومية» ويؤكد:

«أنا لا نجد الفكرة المصرية في عصر يعقوب».

في الحقيقة لم يكن يعقوب سوى مغامراً مُعبراً عن فية ضييلة من الراديكاليين الأقباط، مثلما كانت هناك فية ضييلة متطرفة من المسلمين أحرقت بعض مساكن الأقباط عند مجيء الحملة الفرنسية ولا يُعتبر يعقوب - في الحقيقة - الممثل الحقيقي للشخصية القبطية الحقيقية، إذ يرى كلاً من يعقوب روفيلة وإيريس حبيب المصري أن يعقوب «سار في حطة تخالف ما كان عليه أباء جسده، فإنه فضلاً عن مخالفته لهم في الزى والحركات، اتخذ له امرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية. كما أن رجال الدين لاسيما البطريك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله».

هذا هو الموقف الوطني الحقيقي للكنيسة المصرية «القبطية» ولجميع الأقباط وهو موقف لا يختلف قط عن التيار الوطني العام «المصري». ولكن المشكلة في التاريخ أن التطرف وجو الأساطير الذي يُنسج من حوله، يحول أحياناً دون الرؤية النافذة للأمور.

شفیق غربال

الجنرال یعقوب والفارس لاسکاریس

ومشروع استقلال مصر

فی سنة ۱۸۰۱

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس ومشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١

في الأيام الأولى من شهر يوليو سنة ١٧٩٨ نزل بأرض مصر جيش فرنسي يقوده نابليون بونابرت. ولم تكن هذه أول إغارة لهم عليها. ففي القرنين الثاني عشر والثالث عشر حاولوا امتلاكها، وتلاقت صفوة فرسانهم بممالك مصر في أكثر من موقعة. وكان الفرنسيون في تلك الأيام الغابرة - كما كان أهل الغرب عامة - أقل حضارة وإتقاناً لمن الحرب كما مارسه العصور الوسطى، وكان الفارس من الفريجة صورة سقيمة من المملوك الشرقي، فكانت عاقبة تلك الإغارات المثل.

ومضت خمسة قرون تحول فيها فارس العصور الوسطى - كما عرفه سان لوييس وببيرس - إلى الرجل الغربي الذي سيعرفه مراد والألفي والبرديسي في ١٧٩٨ خمسة قرون زال فيها النظام الإقطاعي وما ترتب عليه من طرق الحكم والحرب وعلاقات طبقات الأمة بعضها ببعض. خمسة قرون رأت انفصام وحدة الغرب الدينية والسياسية وظهور مذهب العلم الحديثة وطرق التنظيم السياسي والاقتصادي الجديد. أما ممالك مصر فكانوا في ١٧٩٨ كما كانوا في ١٢٥٠ في الحرب والتفكير. أو كانوا على حال أسوأ فقدوا استقلالهم ودولتهم وما كانوا يحوبه من مكوس وفروضة على تجارة الشرق المارة في أرضهم. كذلك أهل مصر لم يصلهم عن انقلابات الغرب إلا أضعف الأناء وظلوا في كل مقومات الحياة الوطنية حيث كان أبؤهم

اصطدم المماليك في صيف ١٧٩٨ بعرب غير العرب الذي عرفوه أيام الحروب الصليبية. وسرعان ما رأوا أن لا أساس لما زعموه «من أنه إذا جاءت جميع الإفرنج

١٧٩٨ - ١٨٠١ لا يقفون في مقابلتهم وأنهم يدوسونهم يحيولهم^(١) ويمكن الفرنسيون من احتلال مصر.

وحكم الفرنسيون مصر مدة تزيد قليلاً على ثلاثة أعوام. وقد تخللت هذه المدة محاولة من جانبهم لفتح الولايات السورية. وصيق عليهم أثناءها حصار بحري إنجليزي. وقام المصريون على حكمهم كلما أمكن ذلك. وأباد منهم الطاعون وغيره من الأمراض الوابية عدداً لا يستهان به. وظل مراد ومماليكه ومن انضم إليه من عرب مصر والجزيرة العربية شهوياً عديدة يازعونهم ملك الصعيد شراً شراً وأخذت تبطل التجارة البحرية ويقل ورود قوافل دارفور وسار وهران وبرقة وغيرهما من بلاد المغرب. ولم تطلب للفرنسيين الإقامة بمصر فقد وحدوها دون ما توقعوا^(٢) وشق عليهم العدن عن وطنهم وبخاصة بعد ما بنفهم من تألب الدول الأوروبية من جديد ضد فرنسا وإرغامها على التحلى عن فتوحها في إيطاليا وغيرها وحتى مصر نفسها، عرعوها معرفة أكيدة أن السلطان قد اعترم ألا يتحلى عنها، وأرسل نحوها من ناحيتي البحر والشام جموعاً من حنده قد لا تكون قيمتها الحربية مما يآه له الغريون ولكها، ولا بد، لها مع الزمى أثر.

لا بد من تذكر هذه الظروف عند الحكم على الاحتلال الفرنسي. ولا بد إذن من الفصل بين أمرين مختلفين تماماً: الحكم الفرنسي كما كان والحكم الفرنسي كما يمكن أن يكون لو خلع من انتابه من ظروف الحرب والفتن واتسع له الرمن ليجرى على أسس الاستعمار الحديث.

ولا يمكن الشك في أن الفرنسيين لو خلع لهم ملك مصر لحكموها كما يتظر من حكومة جمهورية قائمة على قواعد الثورة الفرنسية أتيح لها في عصر بدأ فيه

(١) الجبرتي «عجائب الآثار» حوادث المعمر ١٢١٣ جزء ثالث ص ٢ طعة القاهرة سنة ١٣٢٢.

(٢) يتجلى هذا الكره للإقامة في مصر في أكثر ما تركه رجال الحملة من مذكرات ويبدو واضحاً أنهم الوصوح فيما كتبه بعض منهم لأهلهم في فرنسا في رسائل استولى عليها الإنجليز وبشرتها الحكومة الإنجليزية في سنتي ١٧٩٨، ١٧٩٩ في أحرأ ثلاثة تحتوي على الأصول وترجمتها إلى الإنجليزية ولم تهم الحكومة. لتعليق اللازم عليها من قسم عرسى من المهاجرين وقد راجعت هذه الأجرء على المحفوظات في در السجلات في لندن ووجدتها صحيحة مطابقة للأصل راجع ("Original Letters from Army of Bonaparte intercepted by the British fleet" 3 vol, London 1798-1799).

الانقلاب الاقتصادي الكبير أن تحكم قطراً زراعياً حصباً ذا مركز جغرافي مذكوادي النيل. وأمة عربية إسلامية ذات تاريخ معمم بعبر الدهر كالأمة المصرية لو خلص لهم حكم مصر لدلوا جهداً صادقاً في تنمية الموارد بتنظيم الري ووسط النيل. وقد كتب بونارس في مذكراته فصلاً رابعاً عن ضبط النيل بإنشاء سددين على فرعيه عند رأس الدلتا^(١). ولو دامت مذتهم في مصر لعملوا كل ما يستطيعون للاستفادة من مركز مصر الجغرافي، ولو صلوا بين البحرين الأبيض والأحمر - وكتاب وصف مصر يشتمل على الدراسات العلمية الأولى لهذا المشروع الخطير^(٢). واستعمار مصر كان لا بد أن يؤدي إلى اتساع النموذج الفرنسي على ساحلي البحر الأحمر وإلى ما وراء سيناء من ناحية فلسطين والشام. وأن يؤدي أيضاً للتقدم نحو منابع النيل وجعل مصر المدخل والمخرج لتلك الأرجاء الأفريقية الواسعة وحل اللغز الجغرافي القديم وقد سجل تاريخ القرن التاسع عشر تحقيق الكثير من هذا على يد محمد علي. مما يدل على أن حطط الحكومات ليست مما يستبسط من بطون الكتب ولا مما تجود به القرايح، إنما هي مما يمليه الواقع الجغرافي ويكرره التاريخ في أدواره المتباعدة.

ولو دام الاحتلال الفرنسي لسلك نحو المصريين مسلكاً يكون من أثره تحسين كثير من أحوالهم، ثم يعتمد بعد هذا التحسين إلى إبطال النمو - أو إلى إبطاله في بعض النواحي وتوجيهه في الاتجاه الذي يريد. ولم يكن يد من اهتمام الفرنسيين بهذا التحسين الأثر بحكم الإنسانية المشتركة وبحكم منعتهم: يقاوم الأوبئة بإنشاء المستشفيات وما تستلزمه من مدارس الطب والمحاجر الصحية حفظاً للقوى العاملة في الإنتاج الزراعي الذي يعدى الخزانة العامة ويمون التجارة، ومنعاً لانتقال المرض إلى الفرنسيين. يصلح الأداة الحكومية ويسوع الإدارات صيانة للأمن وضبطاً للأموال العامة. ويستلزم هذا إصلاح نظام الجباية ونظام الضرائب. ويتبعه إلغاء الالتزام.

(١) تجد هذه المذكرات في "Notes ecrites sur l'Egypte", "Voyage du Marechal Duc de Raguse", Paris 1873 t. IV, pp. 261-281

انظر أيضاً 276-282 t. III, pp. 1829 Bourienne: "Memoires",

Mounez "Histoire de Mehemet Ali", t. III, pp. 84-86 note

Description d'Egypte Etat Moderne, t. I. vol V (٢)

واستقرار ملكية الفلاح للأرض^(١). يفتح الأبواب لردوس الأموال الفرنسية والنظم التجارية والمعاملات العربية. ويؤدي هذا لتنظيم القضاء على أساس عربي ولدخول القوانين الغربية. ويعنى بإعداد طائفة من أبناء البلاد تسد حاجة الإدارة من صغار الموظفين. ولو دام الاحتلال الفرنسي لاعتمد بعض الاعتماد في الدفاع عن البلاد على جيش وطني من أبنائها^(٢).

ولو دام الاحتلال الفرنسي لاحتاط أشد الحيلة في كل ما له علاقة بالتفكير الديني من المسائل الاجتماعية وموضوعات البحث العلمي. فالحاكم الغربي يحب أن تكون قواعد الإنتاج الاقتصادي غربية صرفة لأن هذه القواعد تزيد الإنتاج والزيادة مما يهجم. ولكنه يكره من المحكومين الشرقيين الانقلاب الاجتماعي والبحث العلمي الحر. وذلك لأسباب: منها حرصه على ألا يظهر للعامة في مظهر الهادم للعادات المشجع على التحرر من قواعد الدين، ومنها ظنه أن تلك الانقلابات لا بد وأن تؤدي في النهاية إلى الرغبة في الاستقلال. ومنها الميل إلى المحافظة على المظاهر الشرقية من قبيل الاحتفاظ بالطوائف والتحف.

والمأمل في أحوال الأمم الإسلامية في الوقت الحاضر يتحقق من صدق ما ذهنا إليه. فإنه يجد أن أشد هذه الأمم تطرفاً في الهدم والتغيير الأمة التركية العثمانية والأمة الفارسية، وهما الأمتان اللتان تخلصتا تخلصاً تاماً من حكم الغرب السياسي

أما عن نظام الحكم فالمنتظر من الاحتلال الفرنسي - لو أن أيامه دامت - أن يبقى حكم القرى على ما عرفته مصر في عصورها المختلفة في أيدي العمدة والمشايخ،

(١) راجع مشروع الجنرال ميو في 254-9 pp Rigault "Le General Menou",

ومذكرات نابليون في 149 p. vol II, and 239 p. vol I, "Campagnes d'Egypte" Napoleon,

"Correspondance de Napoleon", t. XXX, pp 493-496

(٢) كتب نابليون في مذكراته:

"Il faut accoutumer insensiblement le pays à la levée d'une conscription pour recruter l'armée de terre et l'armée de mer"

ثم أخذ بعد هذا يصف حاصر هذه القوة الحربية ويشرح رأيه في ما يجب أن يكون عليه رجالها

الحج
"Campagnes d'Egypte" vol. II, pp. 151, sq. voir aussi correspondance de Napoleon, vol XXX, pp. 85-86.

وأن يعهد لفرنسيين في إدارة الأقاليم وأن تسود المركزية الشديدة. وأن يبقى الفرنسيون على الدواوين التي أسسها فعلاً بونايرت ولم يرم بها إلى خلق النظام البرلماني كما توهم البعض، بونايرت لم يكن ممن يعجوز به أو يرتضيه لفرنسا دع عنك مصر. بل رمى بها إلى إنشاء وسایل تمكنه من الاتصال بالزعماء المصريين وتهمم ما يجري في نفوسهم وتفهمهم حقيقة مشروعاته وبواياه حتى لا يبقى مجال لدس الدسائسين ولا لسوء الفهم^(١).

هذا بعض ما تنصوره عن تطور الحكم الفرنسي في مصر لو استقام للفرنسيين أمرها وليس هذا التصور مما يخلو من الفائدة التاريخية أو مما لا يقوم على أساس من الواقع. فأكثره مستمد مما كتبه بونايرت^(٢) وغيره من نواياهم ومما شرعوا في تحقيقه فعلاً ومما رأيناه من طرق الحكم الفرنسي في غير مصر من الأقطار الإسلامية لكن من الزم لم يتسع لتحقيق ما صورناه. ووجد القواد الثلاثة الذين تعاقبوا على حكم مصر - بونايرت وكليبر ومينو - أنفسهم مضطرين لتوجيه كل جهدهم للتغلب على الأخطار الداخلية والخارجية المحدقة بجيشهم وحكمهم. ولم يكن ما قام به أولهم بونايرت وثالثهم مينو من التجارب الإدارية الأداة الحقيقية لحكم البلاد، ولم تتغير في أيامهم كلها طرق العجاية ولا الضرايب ولا العمال بل ظلت كما كانت أيام المماليك. ولذلك لم تكن الأعوام الثلاثة التي قصاها الفرنسيون في حكم مصر عهداً

المصريون
والحكم
الفرسي

(١) كتب نابليون في مذكراته.

"Nous avons besoin, pour les (les peuples) dinger, d'avoir des intermédiaires; nous devons leur donner des chefs, sans quoi ils s'en choisiraient eux mêmes. J'ai préféré ces ulimas et les docteurs sont les interprètes du Coran, et que les plus grands obstacles proviennent des idées religieuses. Je parce que les ulimas ont des moeurs douces. sont sans contredit les plus honnêtes gens du pays. ne savent pas monter à cheval, n'ont pas l'habitude d'aucune manoeuvre militaire, sont peu propres à figurer à la tête d'un mouvement armé. Je les ai intéressés à mon administration. Je me suis servi d'eux pour parler au peuple, j'en ai composé les divans de justice."

Napoléon "Campagnes d'Egypte" Vol II, pp 151 sq. voir aussi "Correspondance" vol

XXX, 83-4

(٢) اقرأ أيضاً ما كتبه نابليون تحت عنوان "ما يكون من أمر مصر تحت الحكم الفرنسي" في الفصل الثاني من مذكراته من الحملة

"Correspondance de Napoleon. t. XXX, pp. 428-430"

سعيًا لسكانها. حقيقة أن المصريين اعتادوا قبل قدومهم الانقلابات السياسية: اعتادها أهل الريف وأهل الحواضر، وعرفها بصفة خاصة أهل القاهرة. وكانت الانقلابات التي عرفوها مما يصحبه الشيء الكثير من احتلال الأمن وضروب العنف والتعسف وإعادة الطلب عليهم فيما أدوه من الضرايب والمخارم. إلا أن هذه الانقلابات كلها كانت على نمط واحد. لا يأتي واحد منها بجديد ولا يصطدم بمألوف لديهم؛ فمثلاً يتغلب «على الكبير» على خصومه ويحكم البلاد كما حكمها خصومه؛ ثم يتغلب عليه أبو الذهب ويحكم كما حكم على وهكذا دواليك.

ولم يكن للمصريين من نصيب في هذه الانقلابات إلا عمال الإدارة المالية من الأقباط ورؤساء القبائل العربية والشيوخ من العلماء. فالفرق الأول بحكم اضطراب الأمراء جميعًا لاستخدامه، يعمل للمتصرين كما عمل للمهزمين. ورؤساء العربان بسبب قوتهم الحربية قد يرجعون كفة طايفة من الأمراء على كفة خصومها والشيوخ العلماء بحكم تصدرهم وفوذهم في الناس وتحليلهم بصغات الفصل والاعتدال. يلجأ إليهم الناس للوساطة في رفع الحيف إذا ضاقوا به ذرعًا. وقد يحتكم إليهم المتخاصمون من الأمراء وكان تدخل الشيوخ عادة لرفع الضيم وإحلال الويام محل الخصام أو للتخفيف من عنف الانقلابات.

أما الحكم الفرنسي فكان انقلابًا من نوع لم يعرفه المصريون. إذ لما رال حكم مراد وإبراهيم حل محلها بونابرت ولم يكن مسلمًا ولا مملوكًا. ومهما قيل في قلة تدين الفرنسيين في تلك فهم غير مسلمين قد تصل بهم الضرورة الحربية أو ما طوّه الضرورة الحربية إلى انتهاك الحرمات الإسلامية.

كذلك ترك الوالي العثماني مصر عند الإغارة العرسية وزال بغياه مظهر التبعية للسلطان العثماني خليفة المسلمين، وسمع المصريون عن تبعية بلادهم لدولة غربية فرنجية سمى لهم نظامها بأسماء لا تدلهم تجاربهم السياسية على معانيها، فنشر عليهم منشور «من طرف الفرنساوية المبنى على أساس الحرية والتسوية»^(١) وأرخت لهم الحوادث بشهور غربية من سنين تبدأ «من انتشار الجمهور الفرنسي»^(٢).

وكانت للفرنسيين طرقهم في مخالطة النساء. وكانت هذه الطرق مما تكرهه

(١) الجبرتي. حوادث المحرم ١٢١٣ - جزء ثالث ص ٤.

(٢) انظر مثلاً الجبرتي. حوادث المحرم ١٢١٥ - جزء ثالث ص ١٢٢.

الخاصة كرهاً شديداً. وأدى انتشار العسكر في أنحاء المدن والأقاليم، وتشتت شمل أسر الأمراء وانطلاق جوارهم عقب تركهم القاهرة، إلى ضروب غير مألوفة من الفساد والرديلة.

جاء في الجبرتي في حوادث ربيع أول سنة ١٢١٤ «وفي يوم الاثنين رابع وعشرين كان وفاء النيل المبارك . ووقع في تلك الليلة بالبحر وسواحله من العواشش والتجاهر بالمعاصي والفسوق ما لا يكيف ولا يوصف، وسلك بعض غوغاء العامة وأسافل العالم ورعاعهم مسالك تسفل الخلاعة ورزالة الرقاعة بدون أن ينكر أحد على أحد من الحكام أو غيرهم بل كل إنسان يفعل ما تشتهيه نفسه وما يحظر بباله وإن لم يكن من أمثاله».

إذا كان رب الدار بالدف ضارباً فشممة أهل الدار كلهم الرقص^(١)

وجاء فيه أيضاً في حتام حادث سنة ١٢١٥: «ومها تبحر النساء وحروج غالبهن عن الحشمة والحياء، وهو أنه لما حصر الفرنسيين إلى مصر ومع البعض منهم نساؤهم كانوا يمشون في الشوارع مع سايهم وهن حاسرات الوجوه .. ويركن الخيول والحمر ويسقها سوقاً عيفاً مع الضحك والقهقهة ومداعبة المكارية معهن وحرافيش العامة فمالت إليهم نفوس أهل الأهواء من النساء الأسافل والفواشش فتدخلن معهم لخصوعهم «أى الفرنسيين» للنساء وبذل الأموال لهن وكان ذلك التداخل أولاً مع بعض حشمة وخشية عار ومبالغة في إخمايه. فلما وقعت الفتنة الأخيرة وحارت الفرنسيين بولاق وفتكوا في أهلها وغنموا أموالها وأخذوا ما استحسنوه من النساء، والبنات صرد مأسورات عندهم فرئوهن برى نسايم وأجروهن على طريقتهن في كامل الأحوال فخلع أكثرهن نقاب الحياء بالمرة وتداخل مع أوليك المأسورات غيرهن من النساء الفواجر. ولما حل بأهل البلد من الذل والهوان وسلب الأموال واجتماع الخيرات في حوز الفرنسيين ومن والأهم، وشدة رغبتهم في النساء وخصوعهم لهن وموافقة مرادهن وعدم مخالفة هواهن ولو شتمته أو ضربته بتاسومتها فطرحت الحشمة... واستمان نظراؤهن (لمخالطة الفرنسيين)... وخطب الكثير منهم نيات الأعيان . فيظهر حالة العقد الإسلام . لأنه ليس له عقيدة يخشى فسادها وصار مع

(١) الجبرتي، حرة ثالث ص ٨١، ٨٢ .

حكام الأخطاط منهم النساء المسلمات متزيئات بزيهن ومشين معهن في الأخطاط للنظر في أمور الرعية... وتمشى المرأة بنفسها أو معها بعض أترابها على مثل شكلها وأمامها القواصة والخدم وبأيديهم العصى يفرقون لهن الناس مثلما يمر الحاكم ويأمرن ويهين في الأحكام... ولما أوفى النيل أذرعه ودخل الماء إلى الخليج وجرت فيه السفن وقع عند ذلك من تبرج النساء واختلاطهن بالفرنسيس ومصاحبتهم لهن في المراكب، والرقص والغناء والشرب في النهار والليل في الفوانيس والشموع الموقدة وعليهن الملباس الفاخرة والحلى والجواهر وصحبتهن آلات الطرب وملاحو السفن يكثر من المجون والهزل. وخصوصا إذا دت الحشيشة في رؤوسهم وتحكمت في عقولهم فيصرخون.... ويتجاوبون بمحاكاة ألفاظ الفرنسية في غناهم وتقليد كلامهم الشيء الكثير. وأما الجوارى السود فإتتهن لما علمن برغبة القوم في مطلق الأنثى ذهبوا إليهم أفواجا مرادى وأزواجا مغططن الحيطان وتسلقن إليهم الطيقان ودلوهم على مخضات أسيادهن وخبايا أموالهم ومتاعهم وغير ذلك^(١).

وفي أيام الاحتلال الفرنسي حرر غير المسلمين من وطنيين وأجانب أنفسهم من قيود مختلفة من المذلة، كان المسلمون يعدونها إذ ذاك شرطاً من شروط بقاء الإسلام وقد عرف بونابرت ما في هذا التحرر من إساءة للشعور الإسلامي وبئس في مذكراته تقديره أهمية هذا الأمر بياناً واضحاً فقال: «لا فائدة في إظهارنا الاحترام العميق للدين الإسلامي إذا كنا نسمح للأقباط والروم والمسيحيين العربيين بقدر من التحرر يغير من منزلتهم الماضية. وقد أردت أن يكونوا أكثر خضوعاً وأكثر احتراماً لكل ما يتعلق بالإسلام وبالمسلمين مما كانوا في الماضي^(٢)» ونجد في الجبرتي تأييداً لصدق هذه الرعية. فيذكر في حوادث رمضان سنة ١٢١٣ «رحوع نصارى الشوام إلى لس العمايم السود والرقق وإلى ترك لس العمايم البيض والشيلان الكشميري الملونة والمشجرات وذلك مع الفرنسيين لهم من ذلك، وبهوا (أي الفرنسيون) أيضاً بالمادة في أول رمضان بأن نصارى البلد يمشون على عاداتهم مع المسلمين أولاً، ولا يتحاهرون بالأكل والشرب في الأسواق ولا يشربون الدخان^(٣)».

(١) الجبرتي جره ثالث ص ١٧٠، ١٧١

(٢) "Correspondance de Napoleon" t XXX p. 84

(٣) الجبرتي جره ثالث ص ٤٧

لم تستمر الحالة على ذلك. ولم يكن استمرارها مما يمكن في ظل حكم عربي جمهوري شعاره المساواة والحرية الدينية. وما كانت الاعتبارات السياسية لتستطيع محو هذا الشعار تمامًا. هذا إلى حاجة الاحتلال الفرنسي لغير المسلمين. لأموالهم ودياريتهم بأحوال البلاد ونظمها وعادات أهلها ولإمكان الوثوق بهم بفضل اتفاق المنافع.

فعاد غير المسلمين إلى ما عبر عنه الجبرتي بقوله: «ومن الحوادث» ترفع أسافل النصارى من القطر والشوام والأروام واليهود وركوبهم الخيول وتقلدهم بالسيف سبب خدمتهم للفرنسيين ومشبههم الخيلاء وتجاهرهم بفاحش القول واستذلّاهم المسلمين^(١)...».

ولم يكن للحكم الفرنسي في مدته القصيرة، وفي ظروف الحرب والعن الملبسة له، من المآثر ما يحمل الخاصة والعامة من أهل مصر على الإغصاء عما صحبه من الانقلاب الاجتماعي. فقد كان حكمًا عسكريًا شديدًا عيقًا. ولم يكن الإصلاح الذي فكر فيه الفرنسيون، وما استحدثوه من الدواوين وغيرها، والبحث العلمي الذي شرعوا في إقامة قواعده مما يجتذب إليهم المحكومين إلا بعد زمن طويل. ذلك لأن الظلم الحكومية التي اعتادها المصريون وغيرهم من أهل الشرق في آخر القرن الثامن عشر كانت ترمي لأغراض ثلاثة أساسية. جمع الأموال المفروضة، والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة، واستتباب الأمن. وفيما عدا هذه الأمور الثلاثة لا تتدخل الحكومة في أحوال الرعية؛ بل تدع كل ما لا يتعلق من هذه الأحوال بأغراضها تنظمه الجماعات أو لا تنظمه كما جرت به العادات. وإذا شيا إجمال وصف ما اختص به نظام الحكم المملوكي. قلنا إنه يمتاز بقلة التدخل الحكومي كما نفهمه الآن وبالعنف والتعسف ويجب ألا يحملنا ما نراه من جنوح الحكام لهذا العنف والتعسف إلى تصور نظم الحكم على غير ما صورناها من ترك الرعية وشأنها في كل ما لم يتعلق بأغراض الحكومة الأساسية. ويجب كذلك ألا يحملنا ما نسمع عنه من الظلم على الظن بأنه لم تكن أمام المحكومين وسائل مختلفة لتجبه أو لتخفيفه. فإن ارتباط الإدارة الذي نجم عن الانقلابات المتتابة، وسوء دمة العمال، وفوضى السجلات،

(١) الجبرتي في حوادث شعبان ١٢١٣. جزء ثالث ص ٤٦

وما إلى ذلك فتح للرعية أبواب الخلاص من العروض المختلفة سواء منها الشرعية وغير الشرعية.

لا ننتظر إذن أن يرحب المصريون في ١٧٩٨ بالتدخل الحكومي وبما يصحبه من الظلم الدقيقة. ولا أن يعدوها - كما نعدوها الآن - ضماناً لحقوقهم. لأنهم على العكس كرهوا صبط الدفاتر، واعتبروه اشتطاطاً في الطلب، ولم يروا فيما اتخذته الحكومة من الوسائل لمنع الأمراض، كتخطيط المدن من جديد، ومنع الدفن فيها حيثما اتفق، وكسب الطرقات، وعزل المرضى عن الأصحاء إلا استبداداً لا يطاق وفضولاً لا يفهم.

كره المصريون الحكم الفرنسي وقاوموه. ثار أهل القاهرة ثورتين عيفتين. وقام الفلاحون في الأقاليم كلما أتاحت لهم فرصة. وقد ذكرنا من الأسباب ما يكفي لتفسير هذا الكره دون أن نلجأ إلى تعليله بانتحال تعبيرات من تاريخ الغرب في القرن التاسع عشر والتاريخ الصحيح لا يجد في الفتن الشعبية بالقاهرة والأقاليم إلا باعثاً إيجابياً واحداً، هو الرغبة في العودة لما أله الناس. ولا يمكن تسمية ما ألموه استقلالاً. إنما اسمه الوحيد حكم المماليك تحت السيادة العثمانية

وصفنا الفتن بأنها كانت شعبية. كرهها كبار العلماء دون أن يحبوا الحكم الفرنسي وحاولوا أن يقوا الناس أدى بطش الفرنسيين جهد استطاعتهم. فكان موقفهم في أيام الاحتلال الفرنسي موقفهم في الانقلابات الماضية إلا أن مهمهم ومن كبار الخاصة من عمل على التخلص من الحكم الفرنسي وإعادة الحالة التي سبقتها. يذكر التاريخ مثلاً للسيد عمر مكرم الذي ترك مصر عند الاحتلال الفرنسي واشترك في ثورة القاهرة الثانية عند قدوم الجيش العثماني لتسلم البلاد من الفرنسيين بحسب اتفاق العريش. وكان للسيد عمر فيما بعد نصيب في قيام العامة على خورشيد باشا والي العثماني وتنصيب محمد علي والياً على مصر. وجرى له أثناء هذه الحوادث حديث مع مندوب خورشيد باشا ينص على حق الرعية في مقاومة الظلم^(١). ولكن لا يمكن وصف جهود السيد عمر لإخراج الفرنسيين من مصر وتسليمها للسلاطان سعيًا لاستقلال مصر. والظاهر أن السيد عمر كان على جانب من علو الهمة وقوة الشخصية بعثه على العمل للنفوذ السياسي. وقد رأى عاقبة أطماعه لما حاول أن

(١) الجبرتي، في حوادث مصر ١٢٢٠ ج ٣، ثالث ص ٣٥٢

يتحكم في محمد على كما تحكم في خورشيد من قبل. فذاق النفي عن القاهرة وانتهاه حياته السياسية^(١).

وكان السيد أحمد المحروقي ممن ظهر أيضًا في فتنه القاهرة الثانية. ولكنه لم يتصف بصفات الزعامة التي ظهرت في السيد عمر مكرم مثلاً. بل كان رجلًا من رجال المال من نمط فوكيه ومن يماثله في أيام الملكية الفرنسية. وأصدق وصف له قول البرديسي له «مثلث من يخدم الملوك»^(٢).

وظهر في هذه الفتنة أيضًا السيد السادات. وكان من أكثر العلماء نفورًا من الفرنسيين وما أحدثوه، ومن أشدهم سعيًا لإعادة الحكم العثماني. ثم تبين له خطؤه عند فرار الجيش العثماني بعد هزيمته في واقعة المرح أو هليوبوليس وترك رجال الدولة العثمانية أهل القاهرة وشأنهم مع الفرنسيين بعد أن أثاروهم وحملوهم. فكتب لعثمان كتحدا الدولة كتابًا جاء فيه «ألزمت الغنى والفقر والكبير والصغير إطعام عسكري الذي أوقع بالمؤمنين الذل وبلغ في الهب غاية العايات، فكان جهادكم في أماكن المواقف والملاهي... أحتمت أهل البلد بعد أمنها وأشعلتم نار الفتنة ثم فررتهم فوار الفيوان من السنور»^(٣).

وتبين لأهل القاهرة بعد هذه الفتنة - كما سيتبين لهم بعد جلاء الجيش الفرنسي - أنهم كانوا مخدوعين في قيامهم على الحكم الفرنسي من أجل العثمانيين. وأنهم كانوا في فتنتهم صحيحة «الدحاجة» كما سماهم الجبرتي الذي اختص مههم رجلًا مغربيًا لا ناقة له فيها ولا حبل. يدعو للجهاد ويحرص على الاتعاد عن مواطن القتال، يهدد من يتكلم في الصلح برمي العنق ولا يأكل إلا الدجاج^(٤).



(١) الجبرتي في حوادث جمادى الأولى والثانية سنة ١٢٤٤ جزء ريع ص ١٠٢ - ١٠٥

(٢) ترجمة المحروقي في الجبرتي جزء ثالث ص ٣٤٢ - ٣٤٦

(٣) الجبرتي: حوادث شوال ودي القعدة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١٠٨.

(٤) الجبرتي. حوادث شوال ودي القعدة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١٠٤، ١٠٥.

الجنرال
يعقوب

وإذن فلا يرى التاريخ لمصحيح في موقف العامة وزعمائها وأهل الرأي فيها أثرًا لفكرة الاستقلال الوطني ولا يسجل إلا لمصري واحد من أهل هذا العصر فضل اعتبار الاحتلال الفرنسي لا فترة بحس يرحى زوالها وعود ما سبقها؛ بل بدء حياة جديدة لمصر والمصريين مهدت لها الحملة الفرنسية بقطع التبعية العثمانية وهدم قوة المماليك ذلك المصري هو المعلم يعقوب حيا^(١) موضوع هذه الرسالة.

لا أحب أن أعلو فأزعم أن يعقوب فهم تمامًا كل الاحتمالات التي انطوى عليها هدم النظم القائمة في مصر وحكم أمة عربية لها أو أنه تحول في هذه الأشهر القليلة التي قصاها مخالطًا للفرنسيين من حباب من حبة الأموال؛ نشأ ودرج في بيت من بيوت الأمراء المماليك في الصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى داع من دعاة الحركات الوطنية التي يعرفها العرب في القرن التاسع عشر بل أجد يعقوب يحتفظ - حتى بعد مخالطة الفرنسيين - بعض صفات الحجة وعمل الإدارة المالية من أبناء طائفته في ذلك الوقت^(٢) ولكنه وعم ذلك تأثر تأثرًا بيبًا باتصاله بالفرنسيين وبالعرب وكون رأيًا خاصًا عن حكمهم لمصر وما يمكن أن يؤدي إليه ولا يشاركه

(١) هناك ترجمة ليعقوب في كتاب مشاهير الأقطاب تأليف رمزي نادوس (جزء ثا ص ١٠ - ١٦)، وفيها أخطاء أهمها ما جاء عن موته ومحل دمه. وبس في هذه الترجمة تقدير حقيقي لسياسة يعقوب وأرايه وموقفه عند الحلاء الفرنسي - هناك أيضًا ترجمة أخرى في كتاب تاريخ الأمة العظيمة تأليف يعقوب ث تحته رفيله (ص ٢٨٩ - ٢٩١) وهذه الترجمة أهم من السابقة إذ سجل فيها المؤلف ما سمعه عن يعقوب من المعمرين من الأقطاب وأخيرًا نشر في سنة ١٩٢١ المسيو "Gaston Homsy" وهو فرنسي يتصل بسنة يعقوب مؤلفًا باللغة الفرنسية اسمه (Le general Jacob et l'expédition de Bonaparte en Egypte) وهذا الكتاب رغم عبور خطيرة في ترتيبه واستنتاجاته لا يخلو من عوايد إذ جمع فيه المؤلف الكثير مما جاء عن يعقوب في مؤلفات أهل الحملة ونقل عن السجلات الرسمية في مarseilles وثائق مختلفة خاصة بأسرة الجنرال ومن لفظ الهامة التي حققها المسيو همسي ترتيب موت يعقوب وموضع قبره في مarseilles والسيوف الذي قنده ياه الجنرال "Desaix" وعن كتاب المسيو "Homsy" نقل أعصاه لجهة لتاريخ القبطي في «تاريخ الأمة العظيمة» (ص ١٦٩ - ١٧١) ما كتبه عن يعقوب ولا حاجة بنا للقول إن المسيو همسي لا يعرف شيئًا عن الوثائق السياسية الخاصة بمشروع استقلال مصر في سنة ١٨٠١ أم عن اسم يعقوب فقد اكتفى مؤلفو الحملة الفرنسية المعاصرون بذكر اسم الأول فقط ولكنه يرد يعقوب حيا "Jacob Anna" في الوثائق التي استخرجها همسي من سجلات مarseilles - راجع شهادة وفاته في همسي ص ١٤٠، ١٤١

(٢) تجد إشارات «بمؤامرات مائة» من جلد يعقوب في خطاب من لاسكاريس للجنرال ميو نشره ميو أوربان في رسالته عن لاسكاريس في مجلة "Mercure de France" بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٢٤ ص ٥٨٧

في هذا الرأي الرعما من أبناء طائفته، وقد خدموا الاحتلال الفرنسي كما خدموا الانقلابات، الساقطة، ولا أهل الرأي من مواطنيه المسلمين، وقد شرحنا موقفهم من الحكم الفرنسي.

يرد ذكر يعقوب في تاريخ الجبرتي في أكثر من موضع. ويرد ذكره في كل هذه المواضع مقروناً بأعمال تمنع القاري من أن يظن به خيراً وتمثله في صورة المتغابي في خدمة الاحتلال الفرنسي.

يذكر الجبرتي عنه تأييده الحكم الفرنسي أثناء ثورة القاهرة الثانية، بينما الرؤساء الأقباط الآخرون بمن فيهم أكبرهم جميعاً حرس جوهري يدارون الثوار ويمدونهم بالمال والموارد صيانة لأرواحهم لا عطفاً على حركتهم^(١). «أما يعقوب - كما سجل الجبرتي في حوادث شوال سنة ١٢١٤ - فإنه كرك في داره بالدرب الواسع جهة الرويعي واستعد استعداداً كبيراً بالعسكر والسلاح وتحصن بقلعته التي كان شيدها بعد الواقعة الأولى (أي ثورة القاهرة الأولى أيام بونابرت) فكان معظم حرب حرسك الجداوى معه»^(٢).

ويرد ذكره أيضاً في وصف ما حاق بأهل القاهرة من الشدة في جمع العرامة المالية التي ضربها عليهم كليبر بعد إحماده الفتنة، فيقول الجبرتي في حوادث ذي الحجة سنة ١٢١٤ «وكل كليبر يعقوب يفعل في المسلمين ما يشاء»^(٣)

راد نفوذ يعقوب في الأيام التالية لفشل الثورة في القاهرة، وراد في تلك الأيام التالية لفشل الثورة والساقطة لقتل كليبر. زهو الأقباط وخيلاؤهم، أو على الأقل زهو من كان يعمل للحكومة الفرنسية منهم، وتري امتعاض المسلمين طاهراً في الجبرتي في أكثر من موضع: «صعدوا المسلمين من ركوب البغال سوى خمسة أنفار وهم الشرفاوى والمهدي والعمومي والأمير وابن محرم، والبصاري المترجمين وحلافهم لا حرج عليهم وفي كل وقت^(٤)». وأيضاً، «وتناولت البصاري من القبط والشوام على المسلمين بالنسب والضرب وبالوا منهم أعراضهم وأطهروا حقدهم ولم يقوا

(١) الجبرتي جزء ثالث ص ١٠١

(٢) الجبرتي جزء ثالث ص ١٠١

(٣) الجبرتي جزء ثالث ص ١١٣.

(٤) الجبرتي في حوادث ذي الحجة سنة ١٢١٤ جزء ثالث ص ١١٤

للصلح مكاناً وصرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين^(١). وبين الجبرتي أن تعسف الفرنسيين في الطلب كان بإرشاد القبطة... «لأنهم هم الذين تقلدوا المناصب الجليلة وتقاسموا الأقاليم والتزموا لهم بجمع الأموال ونزل كل كبير منهم إلى أقاليم وأقام بسرة الإقليم مثل الأمير الكبير ومعه عدة من العساكر الفرنسية وهو في أبهة عظيمة وصحبته الكتبة والصيارف والأتباع والأجناد من الغز «أى المماليك» السطة وغيرهم، والحيام والخدم والفراشون والطبايحون والحجاب، وتقاد بين يديه الجنائب وبالبغال والرهوانات والخيول المسومة والقواسم والمقدمون وبأيديهم الحراب المفضضة والمذهبة والأسلحة الكاملة والجمال الحاملة، ويرسل إلى ولايات الأقاليم من جهة المستوفين من القبط أيضاً بمزلة الكشاف ومعهم العسكر من الفرنسيين والطوايف والجاويشية، والصرافين والمقدمين على الشرح المذكور فينزلون على البلاد والقرى ويطلبون المال والكلف الشاقة بالعسف ويؤجلونهم بالساعات فإذا مضت ولم يوفوهم المطلوب حل بهم ما حل من الحرق والنهب والسلب، وخصوصاً إذا فر مشايخ البلدة من خوفهم وعدم قدرتهم وإلا قبضوا عليهم وصربوهم بالمقارع والكسارات على مفاصلهم وركبهم وسحبوهم معهم فى الحبال وأدأقوهم أنواع النكال، وخاف من بقى فصاعوهم وأتباعهم بالبراطيل بما يستميلون قلوبهم به وما يستجلبونه لهم من المصاع والمظالم، وأجهدوا أنفسهم فى التشفى من عصهم وما يوحيه الحقد والتحاسد الكامن فى قلوبهم إلى غير ذلك مما يتعذر صبطه وما كما بمهلكى القرى إلا وأهلها ظالمون^(٢)».

ويصف الجبرتي اهتمام يعقوب بتحسين القاهرة عند اقتراب العثمانيين منها للمرة الثانية، فى الأيام الأخيرة من العهد الفرنسى. فيقول فى حوادث المحرم سنة ١٢١٦: «فى عشرينه نوكل رجل قبطى يدعى عبد الله من طرف يعقوب يجمع طائفة الناس للعمل فى المتاريس، فتعدى على بعض الأعيان وأنزلهم من على دوابهم، وسب وصرب بعض الناس على وجهه حتى أسال دمه، فتشكى الناس من ذلك القبطى وأهوا شكواهم إلى بليار قايم مقام فأمر بالقبض على ذلك القبطى وحبسه بالقلعة ثم

(١) الجبرتي فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ جء ثالث ص ١١٤
(٢) الجبرتي فى حوادث ذى الحجة سنة ١٢١٤ جء ثالث ص ١١٨، ١١٩.

فردوا «كذا» على كل حارة رجلين يأتي بهما شيخ الحارة، وتدفع لهما أجرة من شيخ الحارة^(١).

«ولم يكتف يعقوب بكل هذا بل نظم جيشًا من الأقباط يحدم في صفوف الفرنسيين. وكان هذا التنظيم على نفقته الخاصة^(٢) فقد كان يعقوب صاحب مال لأنه لم ينس أن يجمع لنفسه عندما جمع للفرنسيين. وقلده كليبر قيادة هذا الجيش ملقبًا إياه بلقب أغا^(٣). وفي عهد قيادة مينو رقي يعقوب حبرًا لا ومسح براءة هذا اللقب^(٤). وقد وصف الجبرتي هذا الجيش الوطني - نلاحظ أنه أول جيش كون من أبناء البلاد بعد زوال الفراعنة - في كلامه عن حوادث المحرم سنة ١٢١٥: «وفيه طلبوا عسكريًا من القبط فجمعوا منهم طائفة وزيوهم بزيتهم وقيدوا بهم من يعلمهم كيفية حربهم ويدربهم على ذلك وأرسلوا إلى الصعيد فجمعوا من شاسهم نحو الألفين وأحضرهم إلى مصر وأضافوهم إلى العسكرة^(٥) ثم قال في كلام عام عن السنة كلها: «ومن حوادث هذه السنة أن يعقوب لما تظاهر مع الفرنسيات وجعلوه ساري عسكر القبط جمع شان القبط وحلق لحاهم (وإن احتعط هو بلحيته) ورياهم بزي مشابه لعسكر الفرنسيات معبرين عنهم بقنع يلبسونه على رؤوسهم مشابه لشكل البريطة وعليها قطعة فروة سوداء من جلد الغنم في غاية الشاعة على ما يضاف إليها من قبح صورهم وسواد أجسامهم ورفافة أبدانهم وصبرهم عسكري وعروته وجمعهم من أقصى الصعيد وهدم الأماكن المجاورة لحارة البصاري التي هو ساكن فيها حلف الجامع الأحمر، ونى له قلعة وسورها بسور عظيم وأبراج وباب كبير يحيط به بدنان عظام، وكذلك بنى أبراجًا في ظاهر الحارة جهة بركة الأزبكية وفي جميع السور المحيط والأبراج طيقتان للمدافع وبنادق الرصاص على هيئة سور مصر الذي رُمّ الفرنسيات، ورتب على باب القلعة الخارج والداخل عدة من العسكر الملازمين للوقوف ليلاً ونهارًا وبأيديهم السنادق على طريقة الفرنسيات^(٦)».

(١) الجبرتي جزء ثالث ص ١٨٨.

(2) Homsy Le general Jacob, p. 101

(3) Homsy Op. cit., p. 102.

(4) Homsy Op. cit., p. 120.

(٥) الجبرتي جزء ثالث ص ١٢١

(٦) الجبرتي جزء ثالث ص ١٧١ - قال يعقوب ذلك محلة رقبته هي تاريخ الأمة القبطية (ص ٢٨٩) إنه شاهد

«أثار هذه القلعة قبل هدمها في أيام المرحوم الخليلو إسماعيل»

يرد ذكر يعقوب في كل هذه المواضع فلا يمكن لقارى الجبرتى أن يتصوره إلا كأحد أولئك المارقين الذين يظهرون في عصور الحكم الأجنبى ويكونون خلالها حركتا على أهمهم. ولكن القارى لا يجد فى الجبرتى ولا فى غيره أن يعقوب فى سنة ١٨٠١ لما انتهى الاحتلال الفرنسى هاجر وتبع الجيش الفرنسى إلى فرنسا لتحقيق مشروع خطير هو الحصول على اعتراف الدول باستقلال مصر.

عثر على الأوراق الخاصة بهذا فى سجلات وزارتى الخارجية الإنجليزية والفرنسية بعد أن كذت أطرح الأمل فى العثور على تمكيز مصرى أو غير مصرى فى حل المسألة المصرية بالاعتراف باستقلال مصر^(١). وقد أشرت إلى هذه الأوراق فيما نشرت فى تاريخ هذا العهد من تاريخنا^(٢). ونشر المسيو دُون ترجمة وثيقة ونص أخرى من هذه الوثائق فى كتاب ضمن المجموعة التاريخية التى تنشرها الجمعية الجغرافية الملكية بفصل حضرة صاحب الجلالة الملك. وقد مهد المسيو دُون للوثيقتين بمقدمة تحليلية لهما^(٣) وبدأت بعد العثور على هذه الأوراق فى تكوين رأى آخر فى يعقوب وهى طبيعة علاقاته بالفرنسيين

«خدمات يعقوب للحكم الفرنسى من نوعين: خدمات من نوع ما كان يقوم به للفرنسيين حرس جوهرى وملطى وأبو طاقة وغيرهم من كبار الأقباط أساسها السعى للنفع الشخصى من جهة، والخلاص مما كانوا فيه من امتها لا يرقهم

(١) هذه الوثائق أربع الأولى كتاب بالإنجليزية من القبطان إدموندس للورد الأول للبحرية الإنجليزية مؤرخ عن جزيرة مورقة فى ٤ أكتوبر ١٨٠١ يتضمن أحاديته مع يعقوب فى الطريق إلى فرنسا الثانية مذكرة مشروع استقلال مصر مكتوبة بالفرنسية وملحقة بالكتاب المذكور من قلم الغارس لاسكاريس واثيقتان فى أوراق وزارة الخارجية الإنجليزية فى المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية تحت الرقم الأتى F O 78 Turkey 33 (September-December 1801). والوثيقة الثالثة كتاب من لاسكاريس موقع عليه بتوقيع بحر أمضى لفصل الأول بتاريخ أول هديبير من السنة العاشرة (الموافقة ٢٣ ستمبر ١٨٠١) و ١٨ صفر ١٢١٦ (وصحة هـ ١٥ جمادى الأولى) والرابعة بنفس التاريخ لتالديران وزير لخارجية، واثيقتان لثالثة والرابعة فى سجل المراسلات الخاصة بالدولة العثمانية فى أوراق وزارة لخارجية بالفرنسية فى المجلد رقم ٢٠٣ وقد نقلهما المسيو أوربان فى مقالة عن لاسكاريس فى مجلة "Mercure de France" بتاريخ ١٥ يونيو ١٩٢٤ ص ٥٩٣-٥٩٥ - وقد حُرّف المسيو أوربان اسم الموقع إلى "Herni" راجع تحقيق هذه النقطة فى المنقح الثالث لهذه الرسالة وترجمة الوثائق الأربع تجدها فى آخر هذه الرسالة

(2) S. Ghorbal "The Beginnings of the Egyptian Question" p. 210.

(3) G. Douin "L'Egypte Independante" Le Caire, 1924.

من حضيضه ما ملكوه من مال وجاه ولا يفارقهم مهما زادت حاجة الحكام إليهم وخدمات من نوع آخر أساسها التمهيد لمستقبل البلاد السياسى بالتعزيد المؤقت للحكم الغربى».

ومن حقق الطر فى أحوال الشعوب الشرقية الخاضعة لحكم السلطان أثناء القرن التاسع عشر يجد أن الطوايف غير الإسلامية منها نظرت فى أول الأمر للتدخل الغربى فى شئونها بالعين التى نظر بها إليه يعقوب فى آخر القرن الثامن عشر. « أول ما فى تأييد يعقوب للتدخل الغربى تحليص وطنه من حكم لا هو عثمانى ولا هو مملوكى وإنما هو مريخ من مساوى الفوضى والعنف والإسراف، ولا خير فيه للمحكومين ولا للحاكمين إذا اعتبرناهم دولة قائمة مستمرة. فرأى يعقوب أن أى نوع من أنواع الحكم لا يمكن أن يكون أسوأ مما حضعت له مصر قبل قدوم بونابرت.

وثانى ما فى تأييده للاحتلال الفرنسى أنه أتاح فرصة الاتصال بالغرب والتعلم منه. ولا يقل عن هذا شأنًا - فى نظره - ما أتاحه هذا الاحتلال من إنشاء قوة حربية مصرية (قبطية فى ذلك العهد) مدربة على النظم العسكرية الغربية «ومحس سلم بأن هذه القوة كانت أداة من أدوات تثبيت الاحتلال. ويأبه لولا هذا ما سمحت السلطات الفرنسية بإنشائها وتسليحها وتدريبها. غير أنه يلزمنا أن نذكر أيضًا أن الدلائل كلها كانت تدل على أن هذا الاحتلال لن يدوم». وأن القائد كليبر نفسه الذى أذن بإنشاء القوة القبطية كان لا يرى البقاء فى مصر، وأنه لهذا حاول - كما نعلم - الحلاء عنها بعقد اتفاق العرش فى يناير ١٨٠٠، ذلك الاتفاق الذى كان له بعض العذر فى نقصه^(١) وسنين فى موضع آخر^(٢) من هذه الرسالة أن بعض أصدقاء يعقوب من الفرنسيين اهتم بمستقبل القوة الحربية القبطية أكثر مما اهتم بحاضرها، وأنهم كانوا يحبون أن يروها على حال من البأس تجعلها العنصر المرجح فى مستقبل مصر بعد جلاء الفرنسيين عنها.

كان وجود الفرقة القبطية إذن أول شرط أساسى يمكن رجلاً من أفراد الأمة المصرية يتبعه جند من أهل الفلاحة والصناعة من أن يكون له أثر فى أحوال هذه

(١) من اتفاق العرش راجع (Ghorbal: "The Beginnings of the Egyptian Question" Chap. VIII).

(٢) صحيفة ٣١.

الأمة إذا تركها الفرنسيون وعادت للعثمانيين والمماليك يتنازعونها ويعيثون فيها فساداً. على الرغم من أنه لا ينتمى لأهل السيف من المماليك والعثمانيين، وبغير هذه القوة يبقى المصريون حيشاً كانوا بالأمر: الصبر على مضض أو اللاتجاء لوساطة المشايخ أو الهياج الشعبي الذى لا يؤدى لتغيير جوهرى، والذى يدفعون هم ثمنه دون سواهم، وها الفرق الأكبر بين يعقوب وعمر مكرم. يعقوب يرمى إلى الاعتماد على القوة المدربة، والسيد عمر يعتمد على الهياج الشعبى الذى تسهل إثارته ولا يسهل كبح جماحه والذى قد يصل سريعاً لتحقيق أغراض حاسمة، ولكنه لا يصلح قاعدة للعمل السياسى الدائم المثمر فكما أن العامة سريعة الهياج فى أوقات الخلل واضطراب الحكم فهى أيضاً سريعة القنوط خصوصاً إذا اصطدمت بجند مسلحين حتى ولو كان أوليك الجند من نوع ما كان فى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر من ترك وألبانيين ومن مثلهم. وقد رأينا ما كان من أمر السيد عمر لما وجد أمامه محمد على لا خورشيد. هذا الفرق بين الأداة التى اختارها يعقوب وتلك التى اختارها السيد عمر، ليس فى الواقع إلا مظهرًا لفروق أعمق. إذ ما حاحة هذا السيد نقيب الأشراف إلى حيش، والرحل لا يتصور مصر إلا خاضعة لحكم المماليك تحت سيادة السلطان ولا يرمى إلى أعد من أن يملأ إرادته على القايمين بالأمر فيها مدافعاً عن أفراد الرعية كلما زاد الفساد؟ وهو لهذا يكفيه قيام أهل القاهرة واجتماع كلمة العلماء «أما يعقوب فله شأن آخر إذ إنه لا يريد عودة المماليك والعثمانيين وإنما يعمل على أن تكون لعمية من المصريين يد فى تقرير مصير البلاد بدلاً من أن يبقى حطهم كما كان فى الحوادث المماضية مقصوراً على التمرج أو الاشتراك فى بهب المهزومين» ذكر الجبرتي فى حوادث المحرم سنة ١٢١٨ فى كلامه عن اشتباك الألبانيين بأنراك الوالى العثمانى خسرو - ذلك الاشتباك الذى انتهى آخر الأمر بولاية محمد على - ذكر أن الألبانيين كانوا يقولون للعامة من أهل القاهرة «نحن مع بعضنا وأنتم رعية فلا علاقة لكم بنا»^(١). أنتم رعية تخضعون لمن يتنصر منا. هذا كل ما لكم!

أراد يعقوب أن يكون الأمر غير ذلك. وعوّل أن تكون القوة الحربية المصرية الجديدة مدربة على النظم العربية. فكان سباقاً إلى تفهم الدرس الذى ألقاه انتصار الفرنسيين على المماليك. أو قل إلى إدراك ما أدركه محمد على بعد قليل من أن سر

انتصار العربيين في حوذة نظمهم وبخاصة نظمهم العسكرية. فسرق البرق من الآلهة وكان له ما كان.

كيف كان للاتصال بالفرنسيين هذا الأثر كله في نفس فرد واحد من أفراد الأمة في آخر القرن الثامن عشر؟ ذلك لأن يعقوب كان على استعداد لتعلم دروس الحملة الفرنسية. وقد نلت من القليل الذي وصل إلى علما من أخباره قبل ١٧٩٨، أن يعقوب لم يكن كغيره من المرزبين من أثناء طائفته في ذلك العهد وأن معاصريه منهم أحسوا باختلافه عنهم، وأنتوا عليه شذوذه عن مألوفهم، ورواه عنهم المعمرون لصاحب تاريخ الأمة القبطية يعقوب بك رحلة رفيقه المولود في غصون سنة ١٨٤٧ والمتوفي في إبريل ١٩٠٥^(١).

قال صاحب هذا التاريخ: «يظهر أن يعقوب لم يحترف بحرفة الكتابة في الدواوين مثل باقي عظماء أبناء أمته، بل كان من أصحاب الأملاك والتجارة»^(٢) وأنه سار في مسلكه إزاء الحكم الفرنسي «في خطة تحالف ما كان عليه أبناء جسده من حيث الهدوء والسكينة والصبر والاحتمال وفداء أرواحهم وأعراضهم في بعض الأحوال بدل المال والعطايا، فإنه فضلًا عن مخالفتهم لهم في الرى والحركات اتحد له امرأة من غير جسده بطريقة غير شرعية»^(٣)، على أن رجال الدين ولا سيما البطريك لم يكونوا راضين عن تصرفاته وأحواله وقد سمع صاحب التاريخ من بعض شيوخ الأقباط المسنين أن البطريك «نصحه المرات العديدة بالعدول عن هذه الحطة، وأن يعيش كسائر إخوانه فلم يقل وعأوده بالصيحة مرة أخرى فجاوزه جونا عيًّا فسخط عليه. وسمع أيضًا ما كان من تجرؤ يعقوب على الدخول في الكنيسة مرة راكبًا جواده ورافعًا سلاحه وطلبه أن يدول السر المقدس وهو على ظهر جواده

(١) ترجمة رفيقه في كتاب مشاهير لأقباط تأليف ومري نادرز جزء ثالث ص ٢٤، ٢٥

(٢) الثابت غير هذا هو أنه عمل في تدبير لترام سليمان بك الأعيا في الوجه القبلي راجع Le Homsy general Jacob, p. 17)

(٣) تزوج يعقوب مرييس كانت زوجته الأولى قريبة به اسمها محتارة (طويل وبعد موته تزوج من مريم بنت نعمة الله وأصله من حلب كان هذا في سنة ١٧٨٢، و يظهر أن هذا الزواج لم تتم إجراءاته الدينية إلا في سنة ١٧٩١ على يد البطريك. وقد مات يعقوب عن زوجته هذه وبنت ولدت له في ١٧٩٣ - والظاهر أن الأرملة لم تملك وثيقة بزوجها فحصلت في سنة ١٨١٨ على وثيقة من مسجل المعود بمارسيلييا به راجع (Homsy Le general Jacob, pp. 30-32).

معتدراً عن هذه الجسارة، بأن من كان جندياً مثله يلزم أن يكون على الدوام في أهبة واستعداد»^(١).

«رفض يعقوب إذن أن يلتزم الهدوء والصبر والاحتمال وفداء النفس والعرض ببذل المال وأحب أن يكون رجل حرب». وقد ثبت للتاريخ ميله أيام شبابه لأعمال القتال والفروسية على طريقة المماليك، واشترك أيام أن كان يدير التزام سليمان بك الأغا في الصعيد في بعض حروب المماليك ضد جود القبطان باشا حسن الذي نزل بمصر في ١٧٨٦ لتثبيت الحكم العثماني. واهتم بدراسة بعض تلك الحروب وأنقص أساليب المماليك في ركوب الحيل واستعمال السيف^(٢).

«ثم جاء الفرنسيون وعُيِّن لمرافقة الجنرال ديسيه في فتح الصعيد، وهنا أيضاً رفض يعقوب أن يقصر همه على ما عيّن له من تدبير المال والغذاء ونقل الرسائل بل راقب سير الحرب، وحارب مرة من المرات تحت عين ديسيه نفسه على رأس طابقة من الفرسان الفرنسيين حماعة من المماليك وألّى بلاء حسناً، حمل قيادته على تقليده سيفاً^(٣)». ولم يكن المعلوم أن الأقباط يقدون السيوف بل يكسون الفراء أو يتفحون بالمال.

وتعلق يعقوب بديسيه - السلطان العادل كما سماه أهل الصعيد - تعلقاً خالصاً^(٤) وكان لهذا الاتصال أثر كبير في تكوين يعقوب جديد. قال بليار - كان من ضباط ديسيه في حملة الصعيد - يصف فترة من الفترات التي انتهرها القائد لإراحة عسكره. «أقمنا في أسبوط وكما نجتمع كل مساء في منزل ديسيه، وكانت أحاديثنا تدور حول موضوعات شتى وكان كل منا يدلي برأى أو آراء في السلم والحرب وفي النظم والتواريخ»^(٥).

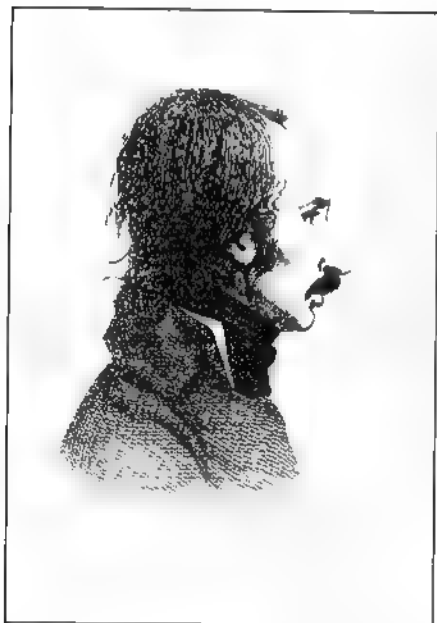
(١) تاريخ الأمة القبطية ص ٢٨٩ - ٢٩١

(2) Denon: "Voyage dans la basse et la haute Egypte pendant les Campagnes du general Bonaparte," annex (1802). Tome I Texte Explication des planches, p. XXXIV

(3) Homsy: "Jacob", p. 60

آل هذا السيف في النهاية للمسبو همهي وتجد رسمه في كتابه في صحيفة ٦٩
(٤) لما قتل ديسيه فيما بعد في واقعة مارجو وبلغت الأنباء مصر حزن يعقوب حزناً شديداً وكتب للجنرال
ميو يبلغه استعداده لدمع ثلث نفقة الأثر الذي أزمعت إقامته لتخليد ذكرى ديسيه Homsy, p. 115

(5) Belhard: "Memoires," t. III, p. 213



الفارس لاسكاريس

مقلا عن مجموعة الرسوم التي عملها الرسام "Duventre" للكثير من رجال الحملة العثمانية، وتوجد نسخة من هذه المجموعة في كتب الأمير إبراهيم حلمي بمكتبة الجامعة المصرية، وهناك بحث مفصل في ديترتر، ورسومه في مذكرات "E. De Villiers du Terrage" طبعة سنة ١٨٩٩ ص ٣٥٥ - ٣٦٠

ولا بد أن يعقوب استمع لكل ما كان يدور، وهم القدر الذي استطاع أن يفهمه ولا بد أن ما استطاع أن يسمع أو يفهم أثار شتى الأفكار في نفسه، وكشف له عن عالم من المعاني غير الذي شأ فيه وعرفه. ويعجز يعقوب عن الإفصاح عما يحول في خاطره ويقيّص الله له رحلاً من أعرب أهل عصره يتولى عنه التعبير. ذلك الرجل هو الفارس ثيودور لاسكاريس دي فتميل.



رددت ذكر لاسكاريس هذا كتب الرحلات. وأداع أمره لامارتين في قصة «فتح الله الصغير بين بدو الصحراء»^(١). واقترن اسمه أثناء إقامته بلبنان باسم سيدة إنجليزية سيلة لا تقل عنه عراة أطوار وهي ليدي هستر ستاهوب حفيدة الوزير الكبير شاتهام وربة بيت حالها ولیم بت مدة ورائته. تركت إنجلترا وقصت باقي أيامها في لبنان. ولا يعرف التاريخ لم كان ذلك. أكانت هجرة نفس آبية إلى حيث الحرية التامة؟ أم كان ذلك لمسي طهر فيها شذوذاً وتجلّى في جده وحالها عطمة وزعامة؟ ومها يكن من الأمر فقد تركها التاريخ حتى الآن لأهل القصص^(٢).

الفارس
لاسكاريس

وكاد يترك لاسكاريس أيضاً للمصير نفسه. وقد تمنى باريس لو تولى بيير بنوا كتابة سيرته كما يكتب نوا السير^(٣). ولكن أنقذه للتاريخ محقق فاضل هو الميسيو أوريان فكتب فصلاً ممتازاً تنوع فيه هذه الحياة الضالة في البر والبحر، في الغرب والشرق^(٤). وليس هذا بالأمر اليسير.

ثيودور لاسكاريس من بيت إيطالي نبيل يتصل قديماً بقياصرة بيزنطة. دخل هو وأخوه في سلك فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يحكمون جرر مالطة إلى أن انتزعها نابرت منهم في طريقه إلى مصر في ١٧٩٨. درس في صباه الموسيقى وصور العمارة وقرأ كل ما استطاع أن يقرأ وغذى بهذه القراءات حياً لا قوياً. وكان دا نفس آية تواقاً للعلا يريد أن يخلد اسماً حليفاً لسليل القياصرة. ولكن حفظه كان

(١) "Récit du Séjour de Fathalla Sayeghir chez les Arabes Errants du Grand Désert"

(٢) Paule Henry Borteaux "La Circé du Désert", "La Sorcière de Djoun" مثل ديث Pierre Benoit: "La Chateaine du Liban"

(٣) Maurice Barrès "Une Enquête aux Pays du Levant," t II pp 205-206

(٤) Aunant. "Mercure de France," 15 juin 1924.

الخمول والفقر والتنقل من مكان لآخر. وانتهى به المطاف إلى مصر يكسب قوته بتعليم الفرنسية لإسماعيل بن محمد على فاتح السودان ثم الموت في القاهرة في سنة ١٨١٧ في ظروف مريبة^(١). وقدر له أن يموت كما بدأ وكما وصف نفسه. «صاحب مشروعات».

تحقق الكثير من هذه المشروعات فيما بعد على أيدي أفراد وحكومات. ولكنها في أيام صاحبها كانت سابقة لأوانها. وكان شذوذ لاسكاريس في أطواره - شذوذ ظهر في أحبه حنونًا - وتعدد المشروعات وتنوعها مما لا يبعث على الثقة فيه. ومما يعربنا أنه وجد بعض السلوى أو السعادة في الخلو إلى نفسه وإلى مشروعاته. وقد حاء في كلام له: «كل إنسان في هذا العالم يسلك الطريق الذي هياه له القدر. واحد من الناس يفتح الممالك ويدوح البلدان، وآخر يصنع النعال. وبعض الناس يتشيون الدول ويشرعون لها الشرايع، والبعض منتهى جهدهم أن يكونوا آباء أطفال.. أما أنا فأحسن صنع المشروعات أخرج نفسي من عالم الحس وأعمل في مشروعاتي وأترك لخيالي التعلب على ما يعترضها من العقبات. ما أجمل الخيال! أجد فيه ما أطبه السعادة»^(٢).

رجل هذه حالة تصيق به مائلة ويضيق ذرعًا بالفرسان. تركها وتبع نوابرت إلى مصر. حيث تقلد بعض المناصب الإدارية. تعلم العربية وتزوج من قوقازية من جوارى أحد الأمراء وأطلق لخياله العنان في هذا الوادي التاريخي الرحيب.

(1) Roussel (Consul de France en Egypte) au Duc de Richelieu. 23 avril 1817

Driaux. "La Formation de l'Empire de Mohammed Ali", p. 53

فيل إن لاسكاريس كره مه تدخله في المسائل السياسية وأنه سقى سما وأن لبوعوض يوسف أحد رجال محمد هلي نصيبًا في هذه النهاية. راجع في هذا أيضًا:

Forbin "Voyage au Levant", p. 98

Roussel au Duc de Richelieu 22 juillet 1817,

Driaux Op. cit pp 65-67

ومهما يكس من الأمر فلا بد من أن تذكر أن الناس في تلك الأيام كانوا سريعين إلى تصديق دعوى التسمم عن كل من مات موتًا مفاجئًا. وسذكر في كلامنا عن موت يعقوب ما أشيع من أن لقطان باش قد سقاء سما قبل ارتحاله عن مصر (ص ٣٤)

(2) Rousseau: "Kleber et Menou", p. 333 note 1

وفى مصر فكر وكتب فى طرق حكمها. ودرس فكرة إقامة قناطر حاجزة عند تفرع النيل فى رأس الدلتا. وعندها يقيم عاصمة البلاد تحت اسم ميوبوليس إجلالاً للجنرال ميو، يحميها الماء من جوانب ثلاثة، وتحدث إليها خيرات الوادى من منافع النيل^(١). هذا الاحتداد والتقدم نحو منافع النيل من مشروعات لاسكاريس الحرة. ألا يمكن أن نجد مغرى خاصاً فى أن إسماعيل فاتح السودان كان تلميذاً للاسكاريس قبل الفتوح؟ وقد ثبت أن المعلم صرف فى بث هذه الأفكار وما يمثليها فى تلميذه أكثر مما صرف فى تعليمه تصريف الأعمال.

ورأى لاسكاريس أن مصر يجب أن تستقل وأنها حليقة بالاستقلال بحكم موقعها وتاريخها ومواردها ورأى أن الحكومة الفرنسية يجب أن تعمل على تحقيق استقلال مصر إذا ما قررت الجلاء عنها بأن تقوى الفرقة المصرية تحت قيادة يعقوب، وأن تعدها بحيث تكون العصر المرحح فى تقاتل العثمانيين والمماليك على تملك هذه البلاد وأشار أيضاً بأن يترك الفرنسيون إذا ما اضطروا للجلاء ذخيرة حربية وقوة فرنسية يطهرون بها عاصية ترفض الانسحاب مع بقية الجيش، ويدعوها تسحب نحو الأقاليم النوبية تفتحها وتهبط منها على مصر عند اللزوم^(٢).

وقد اجتهد لاسكاريس إلى مشروعه هذا فرنسيين آخرين سحل التاريخ من أسمايهم مارسل المستشرق والصابط ديا حاكم القلعة. واتصل بالمصري يعقوب وجعل فرقته القبطية قاعدة الاستقلال^(٣). وحاول أن يقنع مينو بكل هذا ولكنه لم يقتنع. إذ حالت دون اقتناعه قلة ثقته بالفارس والأقباط عامة ويعقوب خاصة، وسمح لنفسه فى أكثر من مرة بمداعبة لاسكاريس والسخرية منه.

كتب له: «هل تذكر أيها المواطن قصة ابن كريبون؟ أراد الابن أن ينشئ ديناً جديداً. ورفع الأب صليلاً وقال انظروا بنى ماذا فعلوا به^(٤)».

(1) "Reynier: "Mémoires", t. II, p. 400

Aurant: "Mercure de France", 15 juin 1924, pp 582, 583

(2) Aurant. Op. cit., pp. 585-586.

(3) Aurant: Op. cit., p. 581 note 2

(4) Menou à Lascais 21 messidor au VIII (10 juillet 1800)

Rousseau. "Kléber et Menou," p 333

ولكن مينو مضى فى الاستفادة من لاسكاريس ويعقوب: الأول لاتصاله بالمصريين والثانى لمهارته المالية وجده القبطى^(١).



وجاء وقت الجلاء وسلمت الحامية الفرنسية المرابطة فى القاهرة تحت قيادة الجنرال بليار المدينة للإنجليز والعثمانيين. وكان من شروط التسليم أن يكون لأى مصرى أراد حق الخروج مع الجيش الفرنسى دون أن يتعرض أحد ممن تركهم من أهله لأذى فى النفس أو المال، وألا يؤذى أحد ممن حطم السلطات الفرنسية وأثر أن يبقى فى مصر بعد زوال أمرها^(٢).

وأرسل إبراهيم بك أماناً للأقباط الذين ينطلق عليهم هذا الشرط الثانى فخرجوا إليه وسلموا وعادوا إلى دورهم^(٣). أما يعقوب فقد صمم على الرحيل مع الفرنسيين والطاهر أنه حاول أن يستصحب عدداً كبيراً من شبان القبط الذين كانوا تحت قيادته. فقد جاء فى الجبرتي فى وقائع صفر ١٢١٦: «أما يعقوب فإنه خرج بمتاعه وعارقه (كذا) وعدى إلى الروسة، وكذلك جمع إليه عسكر القبط وهرب الكثير منهم واختفى واجتمعت نساؤهم وأهلهم وذهبوا إلى قايمقام (أى بليار) وبكوا وولولوا وراجعوه فى إبقائهم عند عيالهم وأولادهم فإبهم فقراء وأصحاب مصانع ما بين نجار وبناء وصايغ وغير ذلك فوعدهم بأن يرسل إلى يعقوب أن لا يقهر منهم من لا يريد الذهاب والسفر معه^(٤)». «ولم يخرج معه إلا أهله، زوجته مريم نعمة الله وابنته مريم وأخوه حنين وأبنا أخته ولقبهما سيداروس^(٥)». وكان فى الخارجيين بعض الأقباط وجماعة من المترجمين وبعض مسلمين ممن خاف على نفسه كعبد العال الأغا الذى طلق زوجته وباع متاعه وفراشه وما ثقل عليه حملة. وخرج أيضاً كثير من نصارى الشوام والأروام مثل يبنى وبرطلمي (فرط الرمان) وغيرهما^(٦).

لم يبق يعقوب بمصر يعمل فى تقرير مصيرها كما حسب. وليس أماناً إلا أن نعلل

(١) Auriant: Op. cit., pp 589, Homsy Op. cit. p. 121

(٢) تجد هذين الشرطين كما أعدها لأهل القاهرة فى الجبرتي جزء ثالث ص ١٩٢

(٣) الجبرتي جزء ثالث ص ١٩٦.

(٤) الجبرتي جزء ثالث ص ١٩٦

(٥) Homsy: Op. cit. p. 133.

(٦) الجبرتي جزء ثالث ص ١٩٧.

ذلك بأسباب لا نأس بها. أولها ما رآه من تشتت الجند القبطى وعزم بنيائهم ونحارهم على ترك الجندية والعودة لعيالهم. ثانياها أن القيادة الفرنسية لم تعد شيئا ما لمستقل العرقة القبطية، ولا لمستقل النفوذ الفرنسى فى مصر. بل كان كل منهما الانسحاب وتنظيم هذا الانسحاب. وربما كان سبب هذا الإهمال ما حدث من تقسيم الجيش الفرنسى إلى قسمين. قسم يدافع عن القاهرة تحت قيادة بليار وآخر عن الإسكندرية تحت القايذ العام مينو. ثم أصبح الاتصال بين القسمين صعبا. وسلم بليار القاهرة فى اتفاق عقده مع الأعداء. وأعقبه تسليم مينو^(١). أما ثالث الأسباب فهو الهجرة لتحقيق مشروع خطير: السعى لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال مصر. ولا أطن أن خروج يعقوب كان للخلاص نفسه، فمثله ممن يمكنهم تصفية الحساب الماضى مع العثمانيين المنتصرين. وقد حاول القبطان باشا حسين أن يغريه بالبقاء فى مصر ووعده ومناه^(٢) ولكنه رفض وأثر الرحيل للعمل فى ميدان حديد



ركب يعقوب السفينة الحربية الإنجليزية نلاس وربانها إدموندس وكان على طهرها أيضا الفارس لاسكاريس وقد عرف إدموندس قدر يعقوب وأنه رعيم فى عشيرته، وأن الفرنسيين لقوه «جرالا» حرصا على بيل تأييده فأحسن لقاءه مما دعا يعقوب للتحدث معه فى شيوخ مصر، وقال له إنه يعتقد أن حكومة العثمانيين فى مصر أسوأ أنواع الحكم وأنه لم يؤيد الاحتلال الفرنسى إلا لتقليل ما حاق بمواطنيه من أذى، وأنه صدق ما ادعاه الفرنسيون من أن دولتهم أقوى الدول الأوروبية ولم يكن يدرك إذ ذاك مدى القوة الحربية الإنجليزية. ثم قال إنه يرحو أن يسمى لدى الحكومات الأوروبية لتحقيق استقلال بلاده وأن هجرته لأوروبا قد تنفع فى هذا السيل، على أنه يعلم أن إدراك العاية مستحيل بلا موافقة الحكومة الإنجليزية^(٣).

هذا مجمل ما قرره يعقوب لأدموندس وزاد عليه لاسكاريس وكان يترجم بين

(١) عن خروج الفرنسيين من مصر انظر Ghorbal. Op cit. ch VIII

(2) Homsy. Op. cit p 131

(٣) راجع الملحق الأول لهذه الرسالة

الرجلي أن يعقوب على رأس وفد مصري اختاره أعيانها لمفاوض الحكومات في أمر الاستقلال.

بعد هذا الحديث اشتد المرض على يعقوب وتوفي في السادس عشر من أغسطس سنة ١٨٠١، والسفينة على مقربة من سواحل الأناضول الجنوبية الغربية، وقد راعى إدموندس مقامه ورجاء أهله فلم يلق جثته في البحر بل وضعها في دس «الروم» حفظها حتى مارسيليا حيث دفنت. وفي إحدى مقابرها يرقد الآن الجنرال يعقوب في قبر معروف^(١).

ولم يكن موته نهاية الأمر فقد قرر لاسكاريس أن الوفد باق رغم موت رئيسه وأعد مذكرة معصلة بالموضوعات التي تحدث فيها يعقوب مع إدموندس وسلمها في مارسيليا لذلك الإنجليزي لتليفها لحكومته. فتعهد إدموندس بذلك وبالمحافظة على سر هذه الأحاديث عن نفسه وعن حكومته.

ما رأى إدموندس في كل هذا؟ قال أولاً إنه لا يملك تحديد مدى التفويض الذي تكلم به لاسكاريس، وثانياً أنه لا يدري إن كان عصواً في الوفد أو سكرتيراً مترجماً له وأنه على كل حال لم يستطع أن يصمه إلا بأنه رجل «حيالي»

قام إدموندس بما وعد به فأرسل لحكومته مذكرة استقلال مصر التي أعدها لاسكاريس^(٢).

بدأ الكاتب بإهداء التحية للورد الأول للبحرية الإنجليزية (الموجه إليه الخطاب) وتذكيره بأن اهتمامه بما تضمنته المذكرة فيه مع دولته وأن ما قد يقوم به لتحقيق استقلال مصر أجمل ما يجدر بلورد إنجليزي أن يسعى له ثم أطنب في وصف عظم هذا المشروع - تحقيق استقلال مصر - وأن هذا الاستقلال يبدد سحب الجهل التي

(١) عن موت يعقوب وتحقيق موضع قبره راجع (Homsy Op cit pp 134-145) روى الصايغ العربي
Vigo Rousillon في مذكراته (Recue des Deux Mondes 15 août, 1890).

أنه حضر الحديث بين القبطان باشا ويعقوب وأن يعقوب شرب قهوة قدمها له حادم الباشا وأنه في اليوم التالي شعر بألم معوي شديد، وتوفي بعد ساعتين والسفينة لتي كان عليها على مقربة من رشد ولا صحة لهذه الرواية بالمره.

(٢) راجع الملحق ثلاث لهذه الرسالة *

تكاثفت على هذا الوادى الذابح الصيت، حيث مهد الحصار، فيه تعلم الإغريق وعن الإغريق ورثت أوروبا علومها وفنونها واستنار أهلها. ألا يثير ذلك فى نفس العربيين شيئاً من عرفان الجميل فيردوا لمصر الاستقلال الذى به تستعيد ما كان لها؟

ثم بين لاسكاريس أن مصر المستقلة لن تضر أحداً. وأن استقلالها وقد أصبحت موضع أطماع الدول خير حل للمسألة المصرية. تلك المسألة التى أثارها الحملة الفرنسية والتى يحتم انهيار بناء الدولة العثمانية مواجهتها. وذكر أن مراد بك قبيل موته أدرك مدى هذا التطور الأخير فى تاريخ بلاده وعبر عنه فى قوله: «إن مصر قد عرفها كمار العرب فلن ينفكوا عن السعى للاستيلاء عليها».

وتناول أيضاً فى مذكرته بحث ما تصيبه الدولة الإنجليزية من نفع فى تحقيق هذا المشروع، فأكد صداقة المصريين للأمة الإنجليزية بعد أن عرفوا جودها وبعد أن حروا الحكم الفرنسى، وأن سيدة البحار لا بد وأن تسيطر بنعودها على مصر وتكون أكبر من يستفيد من موقعها الجغرافى.

«ولم يغفل لاسكاريس الكلام عن أمرين جوهريين. وقد حاء كلامه عنهما أصعب ما فى مذكرته الأول نوع الحكومة المصرية المستقلة، والثانى ما تتخذه هذه الحكومة للدفاع عن كيانها. أما عن نوع الحكومة فاكفى بعد مراوعة كلامية بالقول بأنها ستكون وطنية عادلة حازمة وإنها بذلك تال احترام الأمة وطاعتها» وحيا كما أحب أهل الصعيد فى الماصى القريب حكم العربى همام وكان عادلاً حازماً^(١) «أما عن وسائل الدفاع فنجدته يقرر أن الحكومة الوطنية لن تقوى على صدا اعتداء أوروبى إلا بعد مضى زمن طويل، ولكنها تستطيع أن تصد الترك وتسحق المماليك بجيشها الوطنى تشد أزره قوة حربية أوروبية ويبدل المال لرجال الباب العالى».

وتؤكد المذكرة فى الهاية أن الفكرة الاستقلالية لها أنصار فى مصر، وأن هؤلاء الأنصار يخفونها حذر الموت، ويطلب صاحب المذكرة حمايتهم من اضطهاد العثمانيين إذا ما رفضت الدول إنشاء دولة مصرية مستقلة.

(١) كسر شوكة همام على بك الكبير وتوفى همام فى سنة ١١٨٣ هـ وترجمته فى الجزء الأول من

الجبرى ص ٣٤٥-٣٤٧ (Il Signor Conte Anton Cassis).

«أما عن خطة «الوفد المصري» في القريب فإنها ستكون السعى لدى الحكومة الفرنسية لإقناعها بقبول قاعدة الاستقلال في معاضاتها مع الحكومة الإنجليزية على مصر» ويرجو لاسكاريس أن لا يكون مصدر الاقتراح الفرنسي مما يحمل الحكومة الإنجليزية على رفضه حذر دسيسة سياسية فرنسية ويطلب في النهاية أن تكون مخابرات إنجلترا مع الوفد شفرية وعن طريق الكونت أنطون كاسيس المقيم في ترينستا^(١).

ونجد لاسكاريس فعلاً يقدم للقنصل الأول بومبارت مذكرة موقفاً عليها من «نمر أفندي» بالنيابة عن الوفد المصري وهذه المذكرة خالية طبعاً من التعريض بالحكم الفرنسي، ومن تفضيل المصريين للإنجليز؛ ذلك التفصيل الوارد في المذكرة لإنجلترا على أنها تتفق معها في الغاية الاستقلالية وتطلب تحقيقها باسم التاريخ والإنسانية ولمجد بومبارت^(٢).

وأردف هذه المذكرة بأخرى لوزير خارجية فرنسا - تالليان - يقرر فيها الغرض الأسمى ويعتذر عن الإجمال تاركاً التفصيل إلى أن يستقبلهم الوزير في باريس؛ إذ العرب يحيدون الكلام أكثر مما يجيدون الكتابة، وطلب من الوزير أن يستقبلهم بزيهم الشرقي إذ إن المسلمين منهم يعر عليهم إبدال غيره، فضلاً عن أن هذا الرى يثير في نفس بومبارت ذكرى فتوحه ويعرف من لم ير مصر من الفرنسيين بالشرق وأهله^(٣).



(١) تحت هذا الاسم ونقب البيل الفرنسي يستمر مصري قبلي اسمه أنطون كاسيس عمل في إدارة الجمارك في الإسكندرية أيام المماليك وبما أردت حكومة الأمير طه الرومانية المقدسة (دولة النمسا) أن تفتح طريق مصر لتجارة الهند لمصلحتها، جندبت لتحقيق ذلك أنطون كاسيس هذا فمحت حمايتها وأبعم عليه الأمير بطور يوسف الثاني بلقيس بارون وكونت في الأمير طه طه ولما فشل هذا المشروع المساوي وعلا نفوذ أعدائه غادر الكونت كاسيس مصر واتحد ترينستا موطنه وكان هذا في ١٧٨٤ راجع عن هذا: (F. Charles-Roux. "Autour d'une Route", pp. 156-159).

(Hoskins. "British Routes to India" pp. 23, 26-27).

(٢) انظر الملحق الثالث لهذه الرسالة.

(٣) انظر الملحق الرابع لهذه الرسالة.

لا اللورد الأول للبحرية الإنجليزية ولا القنصل الأول ولا وزير الخارجية الفرنسية المسألة
اهتم بها في هذه المذكرات بل أودعها سجلات الحكومة المصرية
وفي «مقدمات الصلح» بين فرنسا وإنجلترا اتفق على إعادة مصر للدولة العثمانية، الصلح
وأدمج هذا الاتفاق في معاهدة الصلح النهائية: معاهدة أميان. وفي سياسة الحكومتين
قبل أميان وبعدها لم يتعد اهتمامهما بأحوال مصر ونوع حكومتها ما تعلق منها بعلاقة
الدولة العثمانية بالمماليك. وحتى في هذا لم يكن الاهتمام بها إلا من حيث تأثيرها
في تسهيل - أو منع - وقوع مصر في حكم إنجلترا أو في حكم فرنسا لا من حيث
تأثيرها في رفاهية أو سعادة الشعب المصري^(١)

لم يكن إذن لهذه المذكرات أى أثر واقعى. ولا نجد في الأوراق ما يدل على
وجود تفويض لوفد مصرى. وعلى فرض وجوده فمن الثابت أنه لم يشترك في منحه
أى شيخ من العلماء، وإلا لوجدنا في الجرتى ما يدل عليه وليس هناك أيضاً ما يدل
على حصول يعقوب على تفويض من عظماء الأقباط فقط. إذ إن سيرتهم لا تحملنا
على الاعتقاد بأن الفكرة الاستقلالية حالت في أذهانهم وإنما التفويض الوحيد
الثابت حصول يعقوب عليه كان لمطالبة الحكومة الفرنسية برد مبلغ من المال أقرصه
هو وجرجس جوهرى وآخرون للجنرال مينو^(٢).

يحق لنا بعد هذا أن نقرر أن كلمة الوفد المصرى والأدلة التاريخية والفلسفية من
أفكار لاسكاريس. وأن يعقوب لم يقرر إلا الفكرة الاستقلالية.

رغم هذا لا تحل هذه المذكرات من شبه لما قرره المصريون وما أعلنوه في أيام
أقرب إلينا من سنة ١٨٠١: في اتباع طريق المفاوضة للحصول على الاستقلال، وفي
توطيده بالاعتراف الدولى، وفي تبرير طلب الاستقلال بالتثويه بمحمد مصر، وبأن

(١) عن مقدمات الصلح انظر (Ghorbal "The Beginnings of the Egyptian Question" ch IX).

(٢) اشترك في هذا القرض يعقوب وجرجس جوهرى وأنطون أبو طافية وعدنان وس وملطى (Homsy op. cit 119) وقبيل رحيل يعقوب حوله شركاءه معاوضة الحكومة الفرنسية في فرنسا على رد ما لهم (Homsy op. cit 130) وحل موت يعقوب دون ذلك ثم قام حميد لأنطون أبو طافية بالمطالبة وذهب بنفسه إلى باريس وكان ذلك أيام نابليون الثالث ورفضت حكومة الامبراطورية أن تعترف بصحة الدين وسوت المسألة بأن صرفت لحمد أبى طافية ما تكلفه من نفقة في المطالبة (٤٥٠) ليرة فرنسية) ومحتة التهمة الفرنسية (زمرى نادرس الأقباط في القرن العشرين جزء رابع صفحة ٩٦)

عظمة الماضي تبعث على الأمل في عظمة المستقبل، وبأن مصر بها من الموارد في المال والرجال ما يكفل قيام الدولة المستقلة، وأخيرًا بأن موقعها الجغرافي يجعلها موضع التنافس، وأن الدولة التي تسيطر عليها تصبح من القوة بحيث تتحكم في مصالح الدول الأخرى الحيوية وخير الجميع في استقلالها.



«كان نصيب مشروع ١٨٠١ الإهمال. وكذلك كان حظ أصحابه».

خاتمة

المهاجرين
المصريين

وقد عرفنا مآل يعقوب، أما أصحابه فقد عاد نفر منهم لوطنهم بعد قليل. وظل منهم في أوروبا آخرون قامت بينهم القصايا والدعاوى ووقع أكثرهم في العقر والفاقة فأجرت عليهم الحكومة الفرنسية معاشًا مدة طويلة وانتهى أمرهم بالاندماج في الفرنسيين. ولم يكن من أثر ثابت لأحد منهم إلا لليوس بقطر صاحب القاموس الفرنسي العربي^(١).

(١) تجد عريضة اسجداء من المهاجرين المصريين في أوراق وزارة الخارجية الفرنسية في السجل الخاص بالدولة العثمانية تحت هذا الرقم 203 "Supplements", vol. 203 "Turquie", حيث تجد مثلاً من تعاصيم في الرابع من أرملة يعقوب وأخيه حين على بركة البحار في (Homsy, op cit p 70) وصل خبر هذا الرابع إلى مصر الحرثي ثلث ص ٢٨١ في حوادث رجب سنة ١٢١٨، أما عن المعاش الذي أحرته الحكومة الفرنسية على المهاجرين المصريين فالظاهر أنه استمر يجرى على ورتهم من ذلك تجد جبريل إبراهيم وهو حفيد أخت يعقوب يتمتع بمعاشه حتى موته في ١٨٧٨ (Homsy, op. cit p. 67)

ومما يصح ذكره أيضًا عن المهاجرين المصريين أن الرحلة الهندي لمسلم انمارسي الثقافة مبرر، أبا طالب حين أثناء سفره من باريس إلى مارسيني في عودته من إنجلترا إلى وطنه من طريق القسطنطينية والبراق التي في غربة يسير بحسب مصرية مسيحية ذاهبة إلى مارسيني وأعجب بشجاعتها، وإبه لما حاد بعض المسافرين مدعتها رغبًا عنها أوسعتهم س بالبرية وحان أبو طالب بينهم وبينها، ولما قابله في مارسيليا سهلت عليه معصاف سفره وكان هذا في ١٨٠٢ (انظر Mirza Abu Taub Khan, Voyage en Europe etc Traduction française Paris 1831 t II, 69-70)

أما عن بيوس بقطر فكأن سنة وقت برون الفرنسيين نحو الخامسة عشر والظاهر أنه ابتدأ دراسة لغربية إذ ذلك، وعمل في الترجمة أثناء الاحتلال الفرنسي ثم هاجر من مصر عند نهاية الاحتلال لفرنسي وليس هناك ما يثبت أنه ابن أخت يعقوب وأقدم بقطر في مارسيليا حتى سنة ١٨١٢ مشغولاً بدراسة الفرنسية، وفي تلك السنة استقدمه وزير الحرية لدراسة واشتغل أول الأمر بترجمة بعض الوثائق العربية الخاصة بالحمة إلى اللغة الفرنسية، وعاون في تحقيق الأسماء العربية للامر للحرط الجعفرية لمشورة في كتاب وصف مصر وكان أثناء ذلك يعد قاموسه لفرنسي عربي وهي =

وظل لاسكاريس يصرب في بلاد الشرق سبيًا. يجودذهه بالمشروع تلو المشروع أحيانًا لإصلاح الزراعة في بلاد القوقاز ولبان، وأحيانًا لتدبير مستقبل الحبل السياسي أو لتسوية مشكلة الوهابية. وهو أينما حل يحوطه جو من الطون والارتياح من جانب الرجال الرسميين وحظه الحزن والفاقة إلى أن هبط مصر يرتزق من تعليم الفرنسية لإسماعيل بن محمد على وبقي كذلك إلى أن مات في ١٨١٧ وانتهى كما بدأ «صاحب مشروعات» إلا أنه على الرغم من ذلك يحق علينا أن نحیی ذكری من عرف كيف یحید الکلام فی استقلال مصر، وكيف یبیه علی مرر الاستقلال الحقیقی. الکرامة الإنسانية فكان بذلك معرًا لدعة العصر الحاضر عما جاش فی نفس المصری یعقوب.

کذلك کانت بداية الفكرة الاستقلالية، أما تاریخها فهو تاریخ مصر من أيام محمد علی حتى اليوم.

- سنة ١٨٢١ هـ تدریس العربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، ومات في نفس السنة وهو في السابعة والثلاثين وقد تمكن من تجهيز القاموس ووقف على طبعه حلفه في تدريس العربية المستشرق Caussin de Perceval وقدم له ترجمة ليقطر منها استحصا الحقائق السابقة وقد طبع هذا القاموس أيضًا في القاهرة في مجلدين في سنة ١٨٧١، وقام على طبعه عبيد غلاب حريج مدرسة الألسن وفي كتب الأمير إبراهيم حلمي بمكتب الجامعة المصرية توحد هذه الطبعة من القاموس، كما توجد أيضًا طبعة باريس الرابعة في مجلد واحد وتاريخها ١٨٦٩، وقد وقف على هذه الطبعة الرابعة Armand Pierre Caussin de Perceval ابن المستشرق السابق الذكر

الملحق الأول^(١)

من القبطان جوزيف إدموندس ريان السفينة الحربية بالاس للايرل أوف سانت فنسنت اللورد الأول للبحرية الإنجليزية

على ظهر السفينة بالاس
جزيرة منورقة في ١٤ أكتوبر ١٨٠١

سيدى

استبحت لمسى أن أرسل لكم المذكرات المرفقة بكتابتى هذا اعتقاداً منى بأنه قد
يهم حكومة بلادى أن تعلم أن أشخاصاً يسمون أنفسهم بالوفد المصرى يقيمون فى
باريس فى الوقت الحاضر.

كان ممن ركب فى مصر السفينة بالاس تحت إمرتى رحل قطبى دو سمعة حسنة
جداً وهو من زعماء طائفته وله فيها نفوذ كبير. وقد منحه الفرنسيون لقب حيرال
لبنالوا تأييده.

عبئت بعض العناية بهذا المسمى السبى الحط مما جعله يحدثنى فى شيون بلاده.
وقد صرح لى بأنه يعتقد أن أى أنواع الحكم فى مصر أفضل من حكم الترك لها، وأنه
انضم للفرنسيين تلبية لباعث وطنى عليه يحفف عن مواطنيه ما قاسوه، وأن الفرنسيين

(1) Captain Joseph Edmonds of His Majesty's Ship Pallas to the Earl of Saint Vincent first
Lord of the Admiralty. Minorca 4th October 1801
Foreign Office Records, 78, Turkey, vol 33
Traduction française Douin, "L'Egypte Indépendante" pp 1-3

خدعوههم وأن المصريين في الوقت الحاضر يحتقرونها كما كانوا يحتقرون الترك وأنه لم يعتقد بعد آماله في خدمة بلاده وأن ارتحاله لفرنسا قد يمكنه من هذا وقال أيضًا إن الفرنسيين جعلوه يعتقد أن دولتهم لها قوة السيطرة في أوروبا وأنه لم يعرف إلا قليلًا عن قوة إنجلترا البحرية، ولكنه كان يعرف رغم هذا أنه بلا موافقة إنجلترا فإن رغبته في قيام حكومة مستقلة في مصر لن تتحقق. وأضاف صديقه لاسكاريس (وهكذا وصف نفسه) وكان يترجم أقواله لي، أن الجنرال المعلم يعقوب يرأس وفدًا فوضه أو عينه أعيان مصر لمفاوضة الدول الأوروبية في أمر استقلالها. وأثناء سفرنا مات الجنرال وقام الترجمان (لاسكاريس) بتحرير مذكرات أحاديث المرفقة بكتايب هذا. وقد أعرب لي الجنرال قبل موته عن رغبته في أن أبلغ موضوع هذه الأحاديث لقياد القوات البريطانية الأعلى كي تعلم به الحكومة البريطانية بواسطته. وقد قرر لي المسيو لاسكاريس أن الوفد لم يزل باقياً، وأن المفوضين الآخرين على طهر السفينة بالأس لا يزالون أعصاء فيه. هذا وإنني لم أتمكن من أن أتبين هل هو واحد من هؤلاء المفوضين أو أنه ليس إلا سكرتيراً مترجماً له. وأعتقد من كلامه أنه رجل حيالي^(١). وأظنه بيدمونتى الأصل، وسمعت أنه من أولئك الفرسان الذين تركوا حرية مالطة وتحوا جيش بوناپرت. وقد أعطيت ميثاقى للمعلم يعقوب بأن أمتنع أنا والحكومة البريطانية من استعمال ما أبلغنا إياه استعمالاً يؤديهم هذا ولما كان من المحتمل جداً ذهاب هذا الوفد الذى لا يمكننى تقدير مدى ما بيده من تفويض للإقامة في باريس فقد رأيت وجوب تبليغكم هذه المذكرات والأحاديث مباشرة. إذ قد يمضى بعض الوقت قبل أن أجد فرصة لإبلاغها أولاً لرئيسي اللورد كيث. وأرجو أن تنتزلوا فتقروا مسلكتي هذا.

ولى الشرف... إلخ.

(١) "From his conversation I believe him to be of a speculating mind "

الملحق الثاني^(١)

مذكرات مرفوعة للقبطان إدموندس لتذكره في الوقت المناسب له مرسوم أهم الموضوعات التي تبادلناها في أحاديثنا السياسية على ظهر سميته.

(١)

الحطاب المرفقة به هذه المذكرات موجه للورد النبيل^(٢) وقد يظهر لأول وهلة أنه ليس إلا رحاء بسيطاً عادياً في الاهتمام بما معشر المصريين التمساء ولكنه يجب أن يعتبره في الحقيقة مدحس الأحاديث السياسية التي دارت ببسا على طهر السفينة هذا ولما كان الإسهاب في شرح خطتنا في الوقت الحاضر أمراً أقل ما فيه الرعونة فون هذه المذكرات القصيرة المكتوبة على عجل قد تكفى على الأقل لتذكرك بأهم موضوعات أحاديثنا، ومتى حان زمن إطلاعك إياها إما مباشرة لحكومتك أو للورد النبيل؛ فالمصريون لوثوقهم بما انطوت عليه سجيكت يدعون لحسن فطنتك بعته على الاهتمام بأمرهم حتى يكون لما مما يكتبه للوزارة البريطانية أو مما يقوم به عند عودته لإنجلترا مسند نستند إليه لدى حكومته. وليثق بأنه سينتصر لقضية فيها مافع لأمنته. وأي قضية أليق يسعى لورد نبيل مثله!

(١) لمذكرات التي تكون ها الملحق مرفقة بالكتاب السابق وهي في نفس السجل الذي يباه عن المدحق لأول (١٢-٥) pp. cit. op. Douin, Texte français. بهذه المذكرات «بيض» في عدة مواضع وبها أيضاً جمل تحتها خط وهذه المواضع مبينة هنا كما في الأصل
(٢) الطاهر أن لاسكارس من أن إدموندس قد يكتب أو لا لوييسه المباشر للورد كيث لا مباشرة إلى اللورد الأول للبحرية كما فعل. •

(٢)

وإذا سلمنا بأن ما سيرضه الوفد المصري لدى الحكومات الأوروبية على تلك الحكومات باسم المصريين الذين فوضوه قد يظهر قليل الأهمية أمام أعينها، فلتعترف معنا على الأقل - أيها القبطان - أن الدول لن تعمل أبداً عملاً أمجد وأنبل من أن تبذل بقرار سياسي واحد ظلمات الجهل والوحشية التي تكاثفت على هذه البلاد الذابغة العصيت. تلك البلاد التي كانت مهد استارتنا وعلومنا وفنوننا. تلك البلاد التي يمكن القول عنها إجمالاً إنها كانت موضع قيام الحضارة التي نقلها اليونان عنها ومن اليونان وصلت لنا إذا عجرت مصر بعد زوال عرها واردة هارها عن أن تثير شعوراً بعرها صنيعها وما قدمته من خير فلتشر على الأقل عطف الدول الأوروبية عليها حتى إذا ما كان ذلك وردوا إليها أمراءها، أمكها أن ترضى جميع الدول التي تطمع فيها ولا تصاب بسبب ذلك أى واحدة منها فى مصالحها.

(٢)

وقد يحل زمن ليس بالبعيد ترصى فيه الدولة البريطانية عن هذا الحل (للمسألة المصرية). وفى هذه الأثناء قد تقترحه عليها الحكومة العرسية. عديد يجب على الحكومة الإنجليزية أن تعلم أن الاقتراح نتيجته جهود الوفد المصري، فعليها إذن ألا يربها أمره فإن المصريين^(١) ولا يظن أن فرنسا تتقدم بهذا المشروع السياسي إلا على سبيل المجازاة، والواقع أن تحقيقه ليس فى صالحها كما هو فى صالح إنجلترا ومما لا شك فيه أن حكومة الجمهورية العرسية لا تزال على ما كانت عليه من الرغبة فى تملك مصر.

(٤)

تتداعى الامراطورية العثمانية فى جميع أجزائها للانحلال. وبهم الإنجليز إذن قبل حدوث هذا أن يدروا لأنفسهم من الوسائل المؤكدة ما يكفل لهم الاستمادة

(١) جملة غير تامة فى الأصل

من هذا الحادث المهم عند وقوعه. وإذا تيسر لهم استحالة استعمارهم مصر - كما استحال هذا على فرنسا - (فلهم عوضاً عنه) خضوع مصر المستقلة لنفوذ إنجلترا صاحبة التفوق في البحار المحيطة بها. وليس من شك في أن الاستقلال يعيد لمصر رخاءها. ولكنها لن تكون إلا دولة زراعية تستمد عاها من الحاصلات الوفيرة التي تنتجها أرضها الخصبة، ومن كوابها المخرج والمدخل الوحيدان لتجارة إفريقيا الوسطى. ولا بد من أن إنجلترا بحكم مركزها في الهند تهتم جداً بالمتاحرة مع مصر وما حولها من المناطق فتستعيد بذلك أكبر استفادة مما اختصت به مصر من المزايا.

(٥)

وكان مراد بك يقول - وربما كان على حق في قوله - إن كمار العرب (كذلك سمي الأمم الأوروبية) قد صاروا يعرفون مصر أكثر من اللازم وأن الكل يسعى لامتلاكها وأنها ستكون دائماً مثار احتلافهم. قد يقال إن إنجلترا لا حاجة بها إلى ذلك الامتلاك إذ إن سيادتها البحرية تحتم أن تكون كل تحارة مصر في يدها وأنها بذلك يكون لها ما تريد من نفوذ في مصر. ولكن ماذا يكون من أمر هذا النفوذ إذا رحعت فرنسا كما كانت حلقة الباب العالي الطبيعية، وأخذت الدولة العثمانية تجرى على سياسة إرضائها أكثر من إرضاء إنجلترا؟ ألا تذهب الدولة في هذه الحطة فتعلق أبواب مراياها في وجه الإنجليز؟ أليس من الممكن أن يصعق الفرنسيون على الترك براً فيحمدهم على الإمعان في عدايتهم للإنجليز وتحطيم تجارتهم في أراضي الشرق الأدنى وفي البحر الأحمر؟

(٦)

أما عما يحتج نفوس المصريين من عواطف نحو الفرنسيين، فمعناها ما اتبعه هؤلاء من طرق في حكمهم أثناء احتلالهم البلاد. ولا حاجة بي للكلام في هذا لأنني أعتقد أنك تتذكر سهولة ما دار بيننا من حديث فيه. كل شيء إذن يرهس - الأسباب السابقة، وما يشعر به المصريون نحو الإنجليز بعد أن أمكن لهم تقديرهم حقاً - أن مصر المستقلة لا تستطيع إلا أن تكون موالية لإنجلترا فعلى هذه إذن أن تسمح

سياسيًا على الأقل باستقلالها، هذا إذا لم تستطع تأييده بعد حدوثه. يملئ هذه الحطة ما تتوقعه من حوادث في المستقبل.

(٧)

فرصا أن حكومات الدول الأوروبية سمحت باستقلال مصر. كيف يحكم المصريون أنفسهم؟ وكيف يدافعون عن استقلالهم؟

(١) لا يسمح لنا تعجلنا في تحرير هذه المذكرات بتفصيل الخطة التي يعكر فيها الوفد المصري لحكم البلاد. ويكفي الآن أن نلاحظ أن المسألة هنا ليست مسألة انقلاب مشأه استشارة الأمة واحتكاك آراء فلسفية بعضها بعض. لا يقوم نظام الحكم الحديد على شيء من هذا بل تصع قواعد الظروف القاهرة وتحصع له رعية مسالمة حاهلة لا يعرف أفرادها الآن، أو يكادون لا يعرفون إلا عاطفتين حلقيتين المصلحة والخوف فإن أمكن الحكومة الحديدية (وليس هذا بالأمر العسير) أن ترفقه من عيش الناس بعض الشيء، وأن تربد كسهم قللاً فمن المحقق أنها نجد منهم بصرى متحمسين أو ليس أى نظام أفضل من الاستبداد التركي؟ لنكن إذن الحكومة الحديدية عادلة حارمة وطيبة كما كانت حكومة الشيخ همام العربى فى الصعيد؟ (وقد حدثت عن تاريخه) ولتثق عند ذلك بأنها ستحترم وتطاع وتحب.

(٢) كيف يدافع المصريون عن استقلالهم؟ ماذا يصنعون لو اعتدت عليه دولة أوروبية؟ لا تتوقع حدوث شيء من هذا إلا بعد زمن طويل، وعد ذلك يكون قد تم تنظيم الجيش الوطنى وحمله بحيث يستطيع رد الاعتداء أما إذا كان الاعتداء من حابب الترك أو المماليك؛ فإننا نعتقد أن الدول الأوروبية تحظر عليهم من استقلال مصر هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المصريين يمكنهم أن يستخدموا جيشاً أجسياً من ١٢٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ جندى وينفقوا عليه. ويكفى هذا الجيش لصدد الترك عدد حد الصحراء ولسحق المماليك فى مصر نفسها، ويكون هذا الجيش الأحبب أيضاً بواة الجيش الوطنى. هذا ولما تعلمه من تأثير الذهب فى العثمانيين وأنهم يعملون أى عمل للحصول عليه، فإننا نستطيع ردهم

عن مصر ببذله لهم. وكان المماليك يستخدمون المال كلما رأوا سحب السياسة تتلبد في القسطنطينية وتندلهم بشر مستطير.

وينبغي ألا يفوتنا أن يذكر أن المصريين منقسمون بين عدة طوائف وأن هذا الانقسام يتيح الوسائل لدفع هذه الطوائف بعضها بعض فتكافأ بذلك قواها. وللوغد المصري صلات بهذه الطوائف على اختلافها ولا ينحاز لواحدة منها دون الأخرى. وهذه الصلات مستورة وستظل مستورة تمامًا عن الحكومة التركية في مصر، ولا بد من هذه المحيطة إزاء حكم مستبد يأخذ الناس بالشبهات. ولو عرف الترك حقيقة الأمر لما ترددوا في الفتك بإخوان الاستقلال عن آخرهم. والذين هجروا مصر مع الجيش الفرنسي من هؤلاء الإخوان قد تحدوا غضب الترك (وأمنوه) ولكن إخوانا في مصر حالهم غير هذه. هم تحت السيف والعصا. فليس أمامهم إلا المواردية والظهور بمظهر عبيد السلطان والمخلصين.

(٨)

سيبدل المصريون عامة ووفدهم لدى الحكومات الأوروبية (خاصة) كل ما يستطيعون من جهد لتخليص أنفسهم بشكل ما من النير الذي يثقل حمله على بلادهم التعسة. ولكن إذا خاب سعيهم وشاء القدر أن يملك الترك هذه الأقاليم الجميلة الشهيرة وعرضها بذلك لتجدد الإعارات عليها، وجاءت معاهدات الصلح العام بين الدول على عكس ما يشتبهون، فأقل ما يرجوه المهاجرون المصريون من الدول المتعاهدة أن تدبر لهم ضمانًا يقيهم على الأقل، إذا عادوا لوطنهم، شر انتقام الترك منهم.

(٩)

هذا ولو أن الوفد المصري لدى الحكومات لن يعمل إلا في تحقيق مشروع سياسي فيه نفع جميع الحكومات بما فيها الحكومة التركية (وليس تصميمنا الحكومة التركية على غرابته من شطط القول فلنا يمكننا البرهنة على صحته) فقد تعرض أحوال لا بد فيها من المحافظة على سر المماوضة. لذلك فلنا رفق بهذا « شفرًا » يستعمل في مراسلاتنا عند الحاجة إليه.

(١٠)

ويرى الوفد المصري حرصاً على تحقيق ما يصبو له من إبلاغ المعاهدة غايتها لروم كتمان أمر ما، فاتحاكم فيه من مفاوضات لها وما قد تلعبه للورد النبيل عن فرنسا وعن أى أمرى فى مقدوره عرفلتها. وذلك أن خطة الوفد أن يسعى فى أوروبا كي تكون فرنسا البادية بعرص المقترحات الأولى (الخاصة بالاستقلال) على إنجلترا وتكون إنجلترا عديد قد اقتنعت (وهذا الاقتناع ثمرة أحاديثنا معكم وسعى اللورد) بما فى ذلك الاستقلال المقترح من مزايا سياسية فتؤيده وبهذه الطريقة لا يتعرض الوفد المصرى لأن يرى الحكومة الإنجليزية ترفض المشروع تحت باعث من يعور الأمتين إحداهما من الأخرى أو حذر دسياسة من دسايس الجمهورية (الفرنسية)

(١١)

هذا وكى تسهل مراسلتنا ونحن فى فرنسا أو فى غيرها من البلاد، يمكنك أيتها القبطان أن ترسل ما تريد للسيور الكونت أنطون كاسيس^(١) المقيم فى تريستا، وهو يتولى إرسال الرسائل حيث يقيم الوفد، على أن يوضع تحت عنوانه عنوانى أما ما قد يرسل لى (من غيركم) من إنجلترا فإن وصولنا إلى باريس يذيع أمرنا فلا تصعب معرفة أين أقيم وبهذا يسهل تسلمى ما قد تكتبه لى الحكومة (الإنجليزية) ولكن تلم الحيلة الثامنة فى هذا الأمر حتى لا تثار شكوك الحكومة الفرنسية بالمرءة.

على ظهر السفينة بلاس فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٠١.

(١) هن كاسيس هذا النظر هامش من ٣٦ من هذه الرسالة

الملحق الثالث^(١)

من نمر أفندي بالنيابة عن الوفد المصري للقنصل الأول بونايرت^(٢) إلى القنصل الأول للجمهورية العربية من الوفد المصري الكثير الحب له محجر مارسيليا في أول فندمبير من السنة العاشرة (٢٣ سبتمبر ١٨٠١) ١٨ صفر سنة ١٢١٦ (٣)

في أيام العالم الأولى، في تلك العصور البعيدة المجهولة، عندما كانت فرنسا لا تختلف كثيرًا عما صورته الطبيعة، ولا يظهر منها للناظر إلا جليد وعانات، كانت مصر الزاهية المتحضرة تلقى دروس العلم والعرفان على متشرعى الإغريق. ثم دار الفلك دورته وشاء القدر أن يفد مصريو اليوم الحاصر أحقاد معلم الحضارة بالأمس إلى فرنسا، وهي تحت حكمك الحالد الذكر ليدرسوا نظم أمة يحونها ويعترفوا إلى ما اهدت إليه من وسایل لا عهد لغيرها من الأمم بها، تلك الوسایل التي مكنت جمهورية ناشية من صيانة ما كسبته في ميدان الحرب بما استحدثته من نظم سياسية حديثة ... وكما أن سولون عد عودته لبلاده من مصر شرع للإغريق، كذلك الوفد

(1) Archives du Ministère des Affaires Etrangères Turquie "Correspondance", vol 203
Auriat "Mercure de France", 15 Juin 1924, pp 393-394

(٢) بهذه الوثيقة أيضًا يباين في عدة مواضع بياماها كما في الأصل
Nemir Effendi (pas Hemir, comme l'a transcrit M. Auriat) au premier Consul Il y a un
Lofti (sic. Lutfi) Nemir parmi les émigrés Egyptiens à Marseilles, voir Homsy, op. cit. p. 141
حرف المسيو أوريان في نقله هذه الوثيقة اسم لموقع عليها إلى «همير أبدي» وقد قرأناها بحر أمدي
ووحدت في أسماء المهاجرين المصريين في مارسيليا اسم لعلي (أي لطفي) بحر وصاعته مترجم
لغات شرقية (راجع كتاب همص ص ١٤١) وإذا تذكرنا أن اسون والميم في البحر ينطق بها في بعض
اللهجات منحركة بالكسرة سهل علينا فهم كتابة هذا الاسم بالحوروف العربية هكذا "Nemir"
(٣) كلما في الأصل ٢٣ سبتمبر سنة ١٨٠١ الموافق ١٥ جمادى الأولى

المصري الذي قوّضه المصريون الماقون على ولايتهم لك سيصبح لمصر ما ترضاه لها من نظم عندما يعود لها من فرنسا. يكون هذا أيها القنصل الأول إذا تنزلت من أجل مجدك ولنعم الجمهورية السياسية فمددت يد المساعدة للمصريين البؤساء الذين حطمت في الماضي أعلالهم والذين عادوا ينوءون بها من جديد، وأحسنست استقبال وكلايتهم في باريس. وفي العاصمة سيكون استقبالننا حفلًا شرفيًا يجدد ذكرى فتح عظيم نلتته ثم فقدته. ولا بد أنك تحس إحسانًا شديدًا بالهم ما فقدت، فأمر في معاهدات الصلح العام أن تكون مصر مستقلة تعوض عليك خسارتك مائة مرة. هذه هي أمانينا وهذا ما أخذنا على أنفسنا ميثاقًا به.

عن الوفد المصري

وكيله

نمر أفندي

(حاشية^(١)) أغا الانكشارية^(٢) وعضو الوفد، الذي عرفته أيام أن كنت في القاهرة يرجو أن أعيد لك ذكره ما شرفته به من عطمتك عليه ن أ

(1) Ce post scriptum a été omis par M. Auriant dans sa transcription du document. Il se trouve dans le texte original comme suit. "L'aga des janissaires et membre de la légation, connu de vous au Kaire, m'ordonne de le rappeler au souvenir des bontés dont il a été honoré par vous" N.E

(٢) المقصود من هذا عبد العال الأغا الذي ذكرته عبر وكيفية ارتباطه مع الجيش العرسي في سنة ١٨٠١ -

الملحق الرابع^(١)

من نمر أفتندي وزير الخارجية الفرنسية (تاليران)

(نفس التاريخ كالملحق السابق)

سينزل في مرافى الجمهورية الفرنسية عدد غير قليل من مهاجرين شرقيين تركوا بلادهم مع ذلك الجزء من جيش الشرق الذي تم جلاؤه عن مصر. والوفد المصرى بالرغم من أنه قد حرم رئيسه الجنرال يعقوب الذى مات أثناء السفر، يعلن كل ما يحس به من ولاء وحب للجمهورية الفرنسية، ويرى من واجبه أن يلجأ إليك أيها الوزير لتفضل وتضعه هو وهؤلاء المهاجرين فى كفك وتقول له كما يقول بدوى الصحراء لضييفه «كن فى أرضك»^(٢).

كان لويس الرابع عشر يعمل فى الظاهر لضم كنيسة الحبشة للكنيسة الرومانية ولكنه كان يسعى فى الواقع لمد نفوذه السياسى نحو أقاليم أفريقيا الوسطى الجذابة الخفية، فبذل جهودًا عديدة غير مثمرة ليعلم فى فرنسا شيئًا من المصريين، وعلى الأخص من القبط، فإن بطريرك هؤلاء هو فى الواقع بابا الأحباش. لم ينجح الملك فى سعيه هذا. واليوم نرى الجمهورية الفرنسية تحت حكم القنصل الأول تحقق دون عناء ما عجزت عن تحقيقه - اللهم إلا الجزء الضئيل منه - الملكية الفرنسية

(1) Nemir Effendi au Ministre des Relations Extérieures, 1 Vend. annex Archives du Ministère des Affaires Étrangères. Turquie. Correspondance vol. 203.

Auriant: op. cit. pp. 594-595.

(٢) فى الأصل ما يأتى:

“et lui accorder, comme disent les Arabes du désert, votre fiardac d'hospitalité”.

المطلقة، وقد بلغت متتهى القوة الاستبدادية. هذا والوفد المصرى الذى ينوب عن الأمة المصرية لدى الحكومة الفرنسية يمثل وحده كل ما يجول فى نفوس مفوضية العديدين من شعور بصالح الجماعة، وما يملؤ أفيدهم من أمان وما يملكون من أصالة تدبير ونفوذ وثروة ويعبر عما أجمعوا عليه من رغبتين: الأولى، سحق القوة الغشوم التى تستبد بهم من جديد. الثانية، وضع أملمهم فى فرنسا، اعتقاداً منهم أن مصلحة الجمهورية الفرنسية ذاتها تقضى عليها أن لا تخيب أملمهم. نتقدم إليك إذن أيها الوزير برأى: تكبدت فرنسا فى الشرق خسارة عظيمة، لم لا تتخذ من هذا الوفد وسيلة لتعوض ما فقدته؟ إنك إن تفضلت فددعوت الوفد لباريس قبل توقيع الاتفاق التمهيدى مع إنجلترا فإننا نستطيع أن نؤكد لك أن فرنسا تحتفظ للأبد بنفوذها السياسى فى الشرق وتدرؤ عنه ما قد يفقدها إياه زمناً طويلاً من أثر الجلاء عن مصر، وما آل إليه أمرها الآن وسعى الدول التى تخشى بحق علو كلمة فرنسا، بل نستطيع أن نؤكد أكثر من ذلك. نستطيع أن نؤكد أن فرنسا إذا أرادت يمكنها بواسطة أمة - لن تكون إلا موالية لها - مد نفوذها نحو أواسط أفريقيا. وهكذا يتحول ترككم مصر للإنجليز من حادث نحس إلى منبع مجد للقنصل الأول ورفاهية لأقاليم فرنسا الجنوبية.

ولا يرى الوفد المصرى فى الوقت الحاضر فائدة فى الإسهاب. فهو يستطيع فى جلسة واحدة فى باريس أن يبين عن مقاصده ما لا يستطيع فى عشرين مذكرة سياسية. ونحن العرب نقدر فى الكلام على ما نشاء وإن كنا فى الكتابة لا نبلغ إلا جهد المقل. هذا إلى أننا غير غافلين عما توجه علينا كثرة شواغلك السياسية من الإجمال فى الرسائل. ونرجو التفضل بالرد على كتابنا هذا. وأن تسمح لنا إن تفضلت باستقبالنا فى باريس أن تقابلنا بزينا الشرقى. فالمسلمون منا يشق عليهم خلع زيهم. وفضلاً عن هذا، هذه الأرياء الشرقية قد تذكّر القنصل الأول بفتوحه وراء البحار وترضى المستظلمين ممن لم يتبعوه للشرق.

والوفد المصرى يعلم أن وقت القنصل الأول الذى تصدر عن إرادته أمور الحكم حتى فى جزئياتها، وتستظل الدولة فى ظله الظليل أثمن من أن يصرفه فى التفكه بقراءة ما يرد إليه من الرسائل الخاصة، ولكننا نرجو أن يقدر أن وفداً جديداً فى باه، وأنه يصل إلى فرنسا فى ظروف خاصة، وإن كتابنا له^(١) المرفق بهذا له ماله من أهمية فيتزول لتسمله منا ويتأمله بحكمته البعيدة الغور.

(١) المقصود من هذا الكتاب المنشور فى الملحق الثالث.

خاتمة

على أية حال يقدم غربال هنا رؤية جيله «الليبرالى المحافظ» جيل ثورة ١٩١٩، جيل يبحث عن جذور تاريخية للقومية المصرية و«شرعنة تاريخية» للأسرة العلوية وأخذ وعطاء بين الحضارة الغربية ومصر الحديثة، هي رؤية أيديولوجية للتاريخ تختلف معها بشدة كأبناء للعصر الحالى لكننا لا نملك إلا الإعجاب بعصر الحريات الذى كانت تنتشر فيه مثل هذه الآراء آنذاك. ويُلمح على تساؤل ماذا لو نزعنا اسم شفيق غربال من على غلاف الكتاب وقمنا بنشره الآن باسم مؤرخ معاصر؟ من المؤكد أنه سيقع ضحية لعاصفة «التخوين والتكفير».

د. محمد عفيفي

الجنرال يعقوب والفارس لاسكاريس

المعلم يعقوب أو الجنرال يعقوب كما أطلق عليه الفرنسيون. والفارس لاسكاريس المفامر الأوروبي ظلا حكاية شعبية أسطورية تناثرت أخبارهما في ثنايا الكتب إلى أن توفر عليها المؤرخ الكبير شفيق غربال ليجلو القصة الحقيقية التاريخية للجنرال يعقوب القبطي الصعيدك الذك تعاون مع الفرنسيين وقاد فرقة عسكرية تقاتل في صفوفهم، ثم خرج معهم عندما رحلوا عن مصر مشكلا مع جنود فرقته «الوفد المصري» الأول والذك ذهب إلى أوروبا باحثا عن تأييد لاستقلال مصر عن الدولة العثمانية عام ١٨٠١، ليصبح السؤال، هل كان يعقوب مجرد عميل للحملة الفرنسية، أم مناضلا مصرية يحلم باستقلال بلاده، أو حتى شخصية أسطورية لم يكن لها وجود أصلا؟! بحكة الرائد وليبرالية الباحث يتناول شفيق غربال كل هذه الأسئلة وغيرها، مدعما بحثه بالحجج والوثائق.

دار الشروق

www.shorouk.com

نصفهم الفلاح عمرو الكفراوي